العزبة

رواية

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الخليوي ، عبد الجبار
العزبة : رواية/تأليف: عبد الجبار الخليوي.
- ط1- القاهرة: الوادي للثقافة والإعلام، 2018.
192 ص؛ 20 سم.
تدمك: 0 39 6515 977 978
1- القصص العربية
أ- العنوان **813**

* تـــاريخ الإصـــدار: **1439هـ -2018م**
* حقـــوق الطبـــع: **محفوظة**
* رقـــم الإيـــداع: **17239/ 2016م**
* الترقـيم الـد ولى: **ISBN: 978 - 977 - 6515 - 39 - 0**
* الكـــــــــود: **458/ 3**

* تحـــــــــذير: لا يجوز نسخ أو استعمال أى جزء من هـذا الكتـاب بـأى شـكل مـن الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل (المعروفـة منهـا حتـى الآن أو مـا يستجد مستقبلًا) سواء بالتصوير أو بالتسجيل على أشرطة أو أقراص أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن كتابى من الناشر أو المؤلف.

الوادي
للثقافة والإعلام
ص.ب (130 محمد فريد) القاهرة 11518
darannshr@hotmail.com

عبد الجبار الخليوي

العزبة

رواية

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف].

روايتي هذه أحداثها ليست واقعًا حقيقيًّا، ولكنها صور ومشاهدات.. عاصرتُ بعضها بنفسي، لحياة في منتصف سبعينيات القرن الماضي.

وإن كل الشخوص والأحداث فيها من نسج الخيال، حيث لم أذكر أسماء صريحة، فإن صادف وجود أي تشابه بينها وبين أشخاص حقيقيين، سواءً من حيث التسمية أو السلوك أو الأفعال، فإنها محض مصادفة لا غير.

وعذرًا للقارئ الكريم من صراحتي .. على ما في الرواية من جرأة وآراء، ربما قد يستغربها أو يستهجنها البعض.

المؤلف

(1)

(ناصر) ساهمٌ في ذكريات عقلية مؤلف كتـــاب "من وحـــي القلم" .. تعوَّد أن يُبحر بين صفحاته كلما وجد فرصة للقراءة، يعتبره - بحق وجدارة - من أفضل من كتب من وحي (عقل الإنسان) المعاصر .. لقد أحاط مؤلفه بكثير من جوانب علوم عصره؛ فالكتاب يُمثل عقيدة وفكر وثقافة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، جمع فيه بين مختلف نواحي الحياة، من أدب وتاريخ ولغة ودين وفن، يُدغدغ مشاعر القارئ الإنسانية بين صفحاته بقوة.

كان ناصر يضع الكتاب فوق ركبتيه، كأنه طفل صغير مدلل؛ ليكتب منه بعض النصوص التي يختارها بعناية فائقة، ويبعثها بالبريد للجرائد والمجلات؛ من أجل نشرها، وينسبها لصاحب الكتاب بكل أمانة.

ترك ناصر كثيرًا من الهوامش والملاحظات حول أطراف صفحاته وبين سطوره، وبألوان مختلفة .. (فناصر) منذ أن كان شابًّا يعشق القراءة، وصديقٌ حميم لكتب الأدب والثقافة، ولا يزال يذكر في يوم تخرجه من الثانوية العامة، قَدَّمَ له خاله الكبير (حمد) مجموعة من الكتب (الأدبية) هدية له على تفوقه في دراسته، وكان من ضمن تلك الكتب كتاب "من وحـــي القلم"، ومنذ تلك اللحظة ومنذ ذلك التاريخ، هام ناصر في غرام ذلك الكتاب، وصار يحتضنه في أروقة أوقاته، كلما سنحت له فرصة، ولا يدعه يفارق صحبته، يعيش معه لحظة بلحظة جُل أوقات فراغه، ينقله معه أينما حل وسار، سواء أكانت في سفر أم في حضر؛ ولذا كان ذلك الكتاب المفضل لديه هو أول حاجياته التي وضعتها له والدته (زكية) في حقيبة سفره، يوم قدومه لمدينة (الرياض) من أجل الدراسة الجامعيّة؛ لمعرفتها الجيدة بعلاقة ابنها الوطيدة به .. تعلمُ جيدًا بأنه يأسره كثيرًا أسلوبه في الكتابة .. نسج من مدار فكره تصميمًا خاصًّا لسيرته الذاتية في قادم أيامه.

يحمل هذا الكتاب فكر (ناصر) بعيدًا إلى عالمٍ آخر غير واقعه الذي يعيش فيه، وفي نهاية كل رحلة بين صفحاته، يعود محملًا بـ (رؤية) خاصة للحياة وللعالم الذي يعيش فيه.

ولا يعلم (ناصر) كيف فرّط بهذا الكتاب الغالي على نفسه، عندما قدمه هدية لجارتهم (منايز)، كعربون تعارف وصداقة معها، في بداية مشوار حبه لها.

تعرَّف (ناصر) على (منايز) بالصدفة - ورُب صدفة جمعت بينهما خير من ألف ميعاد، كما يقولون في لغة الحُب والحظ والنصيب وتقريب البعيد - في أحد أيام ذهاب منايز لمدرستها الثانوية (العاشرة) للبنات، الواقعة في حي المرقب، المقابل لحارة الصالحية .. ويتساءل ناصر وغيره دائمًا، لماذا لم تُسمَّ مدارس البنات بأسماء الصحابيات الفاضلات رضوان الله عليهن؟ أو على الأقل بأسماء عربيات لهن مواقفهن المشهورة عبر التاريخ كالخنساء وغيرها؟ بدلًا من تلك الأرقام الصماء التي لا معنى لها إلّا في العمليات الحسابية الجافة من المشاعر الإنسانية، من ضرب وجمع وطرح وقسمة، فلم يجد (ناصر) وغيره من يُجيب عن سؤالهم السهل البسيط.

اعتاد ناصر - في كل صباحٍ - الوقوف عند أحد المنعطفات المتفرعة من الشارع الرئيس، الذي يربط بين حلة (العبيّد) ودوّار (الخرج)، الذي يؤدي لعمق حارة (الصالحية)، قبل أن تبسط الشمس سلطانها على وجه الأرض بضوئها الهادئ الجميل؛ لتُعلن فرحة انتصارها الساحق على

بقايا فلول الظلام، المنزوي بين الأزقة الضيقة، يشاهد حفلة انتصار النور واندحار الظلام.

ومن ذلك الركن الذي يبعد عدة أمتار عن عزبتهم المجاورة لمنزل (منايرِ)، اعتاد أن يقف يوميًّا ما عدا أيام الجُمَع، منتصبًا كعمود كهرباء، ليس له من واجب غير إضاءة ما حوله في الطريق، فيضيء لها إشراقة ابتسامتها الجميلة عند مرورها في (الباص)، يقف قُرب مغسلة (البراحة) لصاحبها اليماني (حسن)، ينادونه بأبي (علي)، رغم عدم زواجه بعدُ، حتى أصبحت كُنية اجتماعية بين الناس، تعارفوا عليها، يُكنون كل حسن بأبي (علي)، وكل (علي) ينادونه أبا (حسن) أو أبا (حسين)، يرتدي (وزارًا) و(فنيلة) بيضاء اللون، ذات كُم قصير، كاشفًا تواضع ساعده وعضده الخاليين من العضلات، رغم تناوله كمية كبيرة من الفيتامينات يوميًّا، وتاركًا جزءًا كبيرًا من شعر صدره الكثيف مكشوفًا، يتباهى به بين أصحابه وأقرانه، مانحًا من يُشاهده فرصة التنزه في حديقة شعر صدره الكثة، سواءً أكان صيفًا أو شتاءً، فانخفاض درجات الحرارة أو ارتفاعها أمر لا يعنيه البتة، ويضع فوق هامة رأسه طاقية مطرزة بخيوط ذهبية، انطفأ بريق لمعانها من كثرة غسلها؛ محاولة منه لستر ثعلبة رأسه المتنامية رقعتها في الاتساع بشراسةٍ يومًا بعد يوم، رغم كثرة مراجعاته لدكتور الجلدية السوداني في مشفى (الشميسي) للشفاء منها، الذي أخبره بأنها من الأمراض المناعية، وبحاجة لعلاج

لفترة طويلة، وعليه الصبر، وتحمل الأدوية والأصباغ والكريمات الكريهة الرائحة خلال فترة العلاج.

وكان ناصر أقرب أعضاء العزبة إلى قلب حسن، وكان بينهما ود وصفاء، وبينهما منافع مشتركة كثيرة، فناصر هو الذي يكتب له رسائله الغرامية الكثيرة، التي يبعثها لحبيبته وابنة عمه (سعاد)، فيدسُّ ناصر له فيها بعضًا من أشعاره الغزلية الجميلة، ثمّ يبعثها حسن لليمن أسبوعيًّا عبر صندوق البريد المركزي، القريب من دوّار (سمير اميس)؛ فحسن لا يثق بالرسائل المبعوثة بالأيدي، التي يحملها عادة المسافرون معهم عبر البر والجو لليمن .. يخشى من تطفل أحدهم على رسائله الغرامية، وفتحها في الطريق، وقراءة ما فيها من غرام بينه وبين (سعاد)، وكشف سر علاقتهما، فيتسرب مثل هذا الخبر لوالدها بعد إشاعته في الحي، فيرفض زواجه منها عندما يتقدم لها في الوقت المناسب .. ناصر لم يشاهد حسن في يوم من الأيام - رغم كثرة جلوسه معه - بثوبٍ أو في قميص وسروال، ولم يره كاشفًا رأسه بدون طاقيته الساترة لتلك المشكلة التي يُعاني منها، كي يُخبر أعضاء العزبة عن مساحة هذه الثعلبة في رأسه، ويصف لهما مدى مساحة الدائرة الكبيرة من اللحم الأحمر الخالي من الشَّعر، التي تتفاعل مع أي إضاءة تهبط على سطحها الأملس، فتبرق وتعكس ذلك الضوء كمرآة مصقولة.

تلك المغسلة الصغيرة في مساحتها - والكبيرة في عملها - تُغطي منطقة كبيرة من حارة الصالحية؛ مما اضطر حسن أن يستأجر الممر الخلفي من صاحب العمارة؛ لنشر الثياب المغسولة على الحبال الممتدة بين الجدارين خلفها .. هذه المغسلة الضيقة، المنزوية - بإهمالٍ من رقابة البلدية وقوانينها الصحية الوقائية - بزاوية عمارة تطل على أحد شوارع حارة الصالحية، مجاورة لبقالة (ياسين) المشهورة بين سكان الحارة، لصاحبها (قايد) اليماني، الذي اعتاد أن يُنادونه (عَبْدُه) وهو يقبله من الجميع، ولم يعترض عليه يومًا، ولا يعلم أحد في العزبة لماذا يُنادون كل يماني (عَبدُه)، وكل سوداني (زُول)، وكل هندي أو باكستاني (رَفيق) أو (صَديق)، ولكن جرت العادة على مناداة هؤلاء بمثل هذه الأسماء، ولا ضير فيها لديهم.

عجز أعضاء العزبة وبعض سكان حارة الصالحية عن معرفة سبب تسمية بقالة (ياسين) بهذا الاسم، الذي لا يمت بأي صلة لاسم صاحبها المدعو (قايد)، وكان البعض منهم يظن أن أقرب الروايات صحة، والتي سمعوها من آخرين عن تلك التسمية، أنها من موروثات أجداده منذ سنين طويلة في هذه الحارة، وعلى القول الراجح أنها لجده الأول (ياسين بن يامين)، الذي جاء من اليمن الجنوبي، فارًّا بنفسه من بطش الشيوعيين، ومن دسائس تأليبهم للحكومة عليه، بين فترة وأخرى، فهاجر للسعودية قبل اعتقاله ومحاكمته، ويُقال إنه كان يهوديًّا قبل

هجرته فهداه الله، فدخل الإسلام في منتصف القرن الميلادي الماضي، بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، وقايد لا يُريد استبدال اسمها؛ تيمنًا واعتزازًا بذكرى جده المرحوم (يس)، ولا يحب أن ينسى ذكريات هذا الاسم الغالي، العزيز على نفسه وقلبه، حتى أن لوحتها الحديدية ذات الخلفية الخضراء والكتابة البيضاء، والتي ظهرت على ملامحها بقع الصدأ البنية اللون، وتعرض بعض حروفها للتآكل والزوال .. رغم ذلك تركها (قايد) على ما هي عليه من حالة سيئة، دون تغيير في ملامحها، كما كُتبت بالخط اليدوي القديم، وبنفس الطريقة التي كُتبت فيها (يس) بحرفين فقط، وأعضاء العزبة لهم حكايات خاصة مع هذا الاسم (يس) ذو النبض التُراثي القديم في قلوبهم، فهذا الاسم يذكرهم بذلك الموروث السخي المحفور في مركز الذاكرة.

اقتنع قايد مؤخرًا بمنح أعضاء العزبة تسهيلات (بقاليّة)، بعد عدة محاولات فاشلة معه، فتم قيدهم في صفحة جديدة باسم (عزبة حارة الصالحية) في دفتره المجلد الصيني (أبو مئة) ورقة، ذو اللون الأحمر، سطّره بالقلم الرصاص والمسطرة لخمسة حقول .. ترك قايد الحقل الأول لتاريخ نشأة العملية الحسابية، التي اعتمد فيها التقويم الميلادي؛ لأنه لا يفقه من التقويم الهجري شيئًا غير شهر الصيام، الذي يُطلقون عليه شهر رمضان، وشهر موسم الحج، وعطلة العيدين، الذي يعتقد بأنهما اسم لأحد الشهور الهجرية، ثمّ بعدها ترك الحقل الثاني عريضًا، وأسماه

(المبيوع)، وجاء بعده ثلاثة حقول حسابية متساوية في العرض، أسماها: المطلوب، المدفوع، والباقي .. والعمليات الحسابية الثلاثة ترجمة شعبية للعمليات المحاسبية (منه، له، الرصيد)، ولا يُسجل قيوده المحاسبية في دفتره هذا إلا بقلم الحبر السائل الأزرق، ويرفض استعمال قلم الجاف أو الحبر باللون الأسود، ولا يعلم أعضاء العزبة وغيرهم السر في هذا الالتزام المحاسبي الدقيق، ويظنون أن قايدًا تعلم الطريقة الشعبية الشائعة في علم (إمساك الدفاتر)، أو ربما قرأ شيئًا بسيطًا عن (مبادئ علم المحاسبة).

كان قايد يبيعهم بالآجل دون فوائد، ثمّ يُشرف على إغلاق كل الحسابات المدينة في دفتره، ولا يقبل السداد الجزئي، وهذه من أهم شروط نظام السداد في تعامله، بأن يكون دفعة واحدة في نهاية كل شهر ميلادي، فكان أعضاء العزبة حريصين جدًّا على المحافظة على هذه التسهيلات الممنوحة لهم، وتسديد ما في ذمتهم أولًا بأول دون تأخير، وذلك من مصروف المكافأة الشهرية التي تُقدمها لهم الجامعة كدعم لطلابها السعوديين.

يعرض قايد معظم بضاعة بقالته ذات الفتحتين فوق أرفف حديدية ذات لون أبيض، عرض الرف الواحد منها 40 سنتيمترًا، وبطول 90 سنتيمترًا .. تنتصب أعمدتها الحديدية المثبتة على الجدار حتى سقفها ..

يرص البضاعة كيفما اتفق دون معرفة في تصنيفها وترتيبها، ولكن ميزته معرفة أماكنها جيدًا عند طلب الزبون لها، وبنفس الوقت جعلها سهلة المتناول للمشتري الذي يبحث عنها.

وخبأ علب السجائر - بأنواعها المختلفة - في ثلاجة غير صالحة للاستعمال، يستخدمها كمستودع صغير، وضعها خلف جلوسه مباشرة، وكان حريصًا على ألّا يبيع الدخان لمن يشك فيه من الزبائن؛ خوفًا من صاحب العمارة الذي كان يقوم في بعض الأحيان بدوريات تفتيشية داخل البقالة بنفسه دون استئذان من قايد؛ لأنه اشترط عليه في عقد الإيجار عدم بيع عُلب (السجائر) في بقالته.

(2)

قايد ابن عم حسن صاحب مغسلة (البراحة)، ومن نفس القرية حسب قولهما، ويُقيمان مع ابن عمٍّ ثالث لهما اسمه (قاسم)، يسكن في حارة (منفوحة)، يمتلك مخبزًا ذا سمعة طيبة في شارع منفوحة العام، اسمه مخبز (أبو حديد)، بجانبه محل صغير لرجل من الإحساء، يبيع فيه اللبن والزبدة بالكيلو، يقوم بتعبئة اللبن للمشتري بكيس نايلون شفاف، رأس ماله في الدكان ثلاجتان، يضع فيهما أوعية اللبن المعدنية الكبيرة، الذي يصل إليه يوميًّا من المزرعة طازجًا، ومروحة أرضية تُوزع الهواء الساخن ذات اليمين وذات الشمال في أرجاء دكانه.

يُساعد قاسم في المخبز أخوه الصغير .. اسمه (ناجي)، الذي يُعاني من مشكلة (الحَوَل)؛ إذ لا يستطيع التركيز على بصره إلا بنظرة جانبية، يستغرب منها من لا يعرف علته .. نصحه بعض أصحابه وأقاربه

بمراجعة دكتور معروف متخصص في أمراض العيون، تقع عيادته في الدور الأول من عمارة (الباخرة) في شارع (الخزان)، ليكشف على نظره؛ عله يجد له حلًّا بنظارة طبية أو بعملية جراحية بسيطة، كما نجح مع غيره من المصابين بمثل هذه العلة، ولكن مشكلته من يدفع له تكاليف هذا الكشف الطبي، ومصاريف العملية إن اقتضت الحاجة لها، فالعين بصيرة رغم أنها (عاطبة)، واليد قصيرة كما يقولون.

لا أحد في حارة منفوحة يعلم لماذا سُمي هذا المخبز بهذا الاسم الغريب، رغم أن مظهر جسم صاحبه (قاسم) لا يدل على أنه من ذوي كمال الأجسام، أو حتى من رافعي الأثقال الحديدية، فجسمه هيكل عظمي، مُفرّغ من الشحوم واللحوم والعضلات، مُغطى بطبقة جلدية رقيقة، تشف عن تفاصيل عظامه البارزة، وكأنه تعرض لعملية شفط مكونات ما تحت الجلد، فترك للمشاهد إمكانية عد عظامه عظمًا عظمًا، رغم كثرة تمارينه اليومية التي يقوم فيها، لرفع أثقال صنعها بنفسه من علب الحليب الجاف، فعبئها بالصبة (الخرسانية) الثقيلة؛ من أجل بناء عضلات في جسمه .. وخلف المخبز مباشرة (شقة) صغيرة ملتصقة به، وتُعتبر جزءًا منه، ولها ممر طويل وضيّق يؤدي إلى المخبز، وللشقة باب جانبي في الشارع الفرعي، الذي ينفذ لعمق حارة منفوحة، والشقة مكونة من غرفتين صغيرتين، واحدة من تلك الغُرف جعلها مستودعًا، وضع فيها أكياس الطحين، وخصصها (قاسم) لعمليات العجن،

والأخرى اعتبرها مجلسًا يستقبل فيه ضيوفه بالنّهار، ويستخدمها كغرفة نوم ومأوى في أثناء الليّل.

أكثر ما كان يزعج (قاسم) سماعه عن ظهور بدعة المخابز الأوتوماتيّكية الحديثة في الرياض، وسرعة انتشارها في الشوارع الرئيسة للحواري، تحت اسم (مخابز العرفج الأوتوماتيّكية)، وإنتاجها للخبز الجديد في السوق، والمُسمى (الصامولي) و(المفرود)، المُعبأ في كيس نايلون شفاف، مطبوع عليه اسم وعنوان المخبز الذي ينتجه، وتوزيعهم لهذه الأكياس في سياراتهم الخاصة على جميع البقالات والأكشاك، وأكثر ما يُثير خوفه وهلعه أن يُفتتح مخبز أوتوماتيّكي في شارع (منفوحة) العام، تلك المنطقة المكتظة بالسكان، أسوة بالمخبز الضخم ذو الواجهات الزجاجية، الذي تم افتتاحه مؤخرًا في شارع (الريل)، فيؤثر على سوقه، كما أثر ذلك المخبز الحديث على سوق المخابز العادية في ذلك الشارع.

(3)

مع إطلالة كل صباح من أيام الدراسة يحملُ ناصر صُرَّةَ كُتبهِ الجامعية، مطويةً بسجادة الصلاة ذات اللون الأزرق، فحياته كلها زرقاء؛ لشدة تعصبه لفريق ناديه (الهلال)، وبين حين وآخر يطلُّ بطرف رأسهِ، محاولًا إخفاء باقي جسده عن رقابة الأنظار البعيدة، المتلصصة من فتحات أخشاب الشبابيك المغلقة، والمطلة على الشارع بحرية .. يُشاهد حبيبته (منار) تتقدم أختها (موضي)، التي تصغرها بعام من بعيد، بزيها المدرسي الطويل، الذي يُغطي حذاءها الأسود المرتفع عن الأرض، رغم تحذير إدارة المدرسة لها بعدم المجيء بمثل هذا الحذاء المرتفع للمدرسة، وتوقيعها على تعهد خطي بذلك، وعباءتها القصيرة المرفوعة من وسط جسدها، كاشفة خصرها ومؤخرتها، وتاركة طرفيها يُرفرفان في الهواء، كأنهما أجنحة حمامة صحراوية لم تعرف سجن الأقفاص، وبغطاء وجه

قصير لا تعرف تفاصيل ما خلفه، لتعرف ملامحها الجميلة .. تتخبط بدرجات (الباص الأصفر) عند صعودها ونزولها، وكلما شاهد ناصر هذه الكائنات الحديدية الصنع تسير في الشوارع الرئيسة العامة وبين طرقات الأحياء الضيقة، يسأل نفسه: لماذا لُطخت هذه (الباصات) التي تحمل الجنس اللطيف بمثل هذا اللون الأصفر الفاقع؟ ألم يكن من المناسب أن يكون لونها أزرق كلون السماء الجميلة؟! ولماذا يُصرون في بلادي على أن يكون لون سيارات الأجرة في كل المدن بهذا اللون الأصفر كذلك؟! هذا اللون الذي يرمز للموت والذبول والزوال .. فناصر شديد التعصب لناديه، ويرغب بأن تكون كل الأشياء التي حوله باللون الأزرق، أو تميل لدرجات لون (الزعيم)، عكس زميله (داود) الذي يعشق نادي (النصر) بجنون، ولو سألته عن سبب عشقه له، لقال لك: ومن لا يعشق الشمس وشروقها الجميل؟! ومن لا يعشق فارس نجد وعصر بطولاته؟! ومن لا يعشق سمو الأمير (عبد الرحمن بن سعود) ورفعه لكؤوس الانتصارات فوق المنصّات؟!، وكلا الاثنين ناصر ودواد في صراع كروي لا ينتهي جداله أبدًا في العزبة، وأجمل ما في صراعهما وحوارهما، أنه لا يذهب بعيدًا بهما، حيث لا يصل لمرحلة التطرف الشديد في الرأي والصدام بينهما، ولا يصل لدرجة التطاول بالكلام البذيء بينهما، أو يصل لاستخدام الضرب باليد، ولا يذهب بهما لمرحلة

قطيعة علاقة الصداقة والانسحاب من العزبة، فكلاهما جنبًا إلى جنب يذهبان سويًّا لملعب (الصائغ) في (الملز) لمشاهدة مباريات فريقهما، لا يكتفيان بمشاهدة المباراة في جهاز التلفاز، أما سامي فليست له ميول رياضيّة ولا تعصبات كرويّة، ويكتفي بمشاهدة المباريات في جهاز التلفاز، ويستغرب من شدة تعصبهما الرياضي لفريقيهما، ويستغل بعض الأحيان التحرش بمشاعرهما عن بعد، بالعزف على أوتار أعصابهما، فيُؤلب أحدهما على الآخر بذكر مثالب فريق أو هزائم نادٍ.

ناصر لا يستطيع أن يقف عند باب عزبتهم لمشاهدة (منایر) عند خروجها من منزلها المجاور لعزبتهم، أثناء صعودها ونزولها من الباص؛ نظرًا لأنهم استأجروا المنزل بشروط صارمة جدًّا، وقعوا عليها في عقد الإيجار، وبرضاهم مع صاحب المنزل أبي تركي (والدها)، المجاور سكنه لهم.

وعزبتهم عبارة عن منزل شعبي بسيط في كل مرافقه، حتى فاتورة الكهرباء عليهم سداد نصف قيمتها شهريًّا؛ لأن المنزلين المتجاورين يشتركان بعداد واحد للكهرباء، وقد استهلك الزمن عمر هذا المنزل الافتراضي، ويعيش باقي أيامه في انتظار زواله من الوجود، والمسألة كلها وقت في عمر الزمن.

العزبة مكونة من باحة صغيرة، يتنفس منها الهواء بمشقةٍ، ويدفعه لرئتي الغُرف .. تأتي هذه الباحة الصغيرة مباشرة خلف باب الشارع الأخضر اللون، ذي الفتحتين، المصنوع من الحديد الثقيل جدًّا، المُزيّن من الخارج بنقوش ذهبية، تفاعلت مع آفة الصدأ بجدارة، وتؤدي الباحة إلى غرفتين متجاورتين، كأنهما توأم في رحم، تعسر عليه أن يتنازل عن أحدهما .. متشابهتان في أدق التفاصيل، حتى في صوت المروحة السقفية الزرقاء اللون، التي تئن فيهما بالصوت نفسه منذ سنين، والمجلس زُيّن جداره العاري بساعة كبيرة، هدية من شركة (سوني)، تعمل بالبطارية، تدقُ في أركان العزبة ساعة بعد ساعة طوال اليوم، ودورة مياه يتيمة غير مكتملة النمو، ذات باب حديد من النوع الخفيف، بلون أخضر كذلك، تقبعُ في زاوية الباحة عند مدخل العزبة، تسمع صوت جريان الماء في قنواتها عند الاستعمال، وعلى كل من يستعملها كتم الأصوات الطبيّعية الخارجة التي لابد منها عند قضاء الحاجة .. زُرع في جدارها الخارجي مغسلة صغيرة، ذات لون أبيض، وثُبت على الجدار فوقها مرآة مربعة الشكل بالخلطة الإسمنتية، دون إطار خارجي .. في كثير من الأحيان تحتاج دورة المياه هذه لعملية إجهاض اصطناعية، ومساعدة من قبل أحد أعضاء العزبة لتصريف ما في معدتها من سوائل متراكمة محجوزة .. ثمّ منطقة صغيرة في مؤخرة الباحة مسقوفة (بشينكو)، يسمونها - تجاوزًا وظلمًا وجورًا لمشاريع مخططات البناء والعمران للمدن

- (مطبخًا) .. في أيام الصيف لا يسلم هذا المطبخ من عبث عواصف الغبار الكثيرة، وفي أيام الشتاء لا ينقطع عنه تسرب الماء من سقفه في أيام المطر، وليس له باب يحفظه من عبث القطط المشردة التي تأوي لمطبخهم، قادمة لهم من الجيران، عبر تسلق الجدران المشتركة من الجهات الثلاثة، ومثل هذا المنزل بمنافعه المتواضعة السيئة لا ينفع إلّا أن يكون عزبة وسكنًا لحياة العزوبيّة، ولهذا كان أبو تركي مضطرًّا لقبولهم بجواره.

استأجروا هذه العزبة بمبلغ عشرة آلاف ريال في السنة، بنظام الدفعتين، بتزكية وكفالة من بعض معارفهم من العوائل المقيمة في الحارة نفسها، من مكتب (المجدم) العقاري، لصاحبه (أبو سليمان)، الواقع مقابل دوّار الصالحية من جهة الشمال.

أعضاءُ العزبة الثلاثة يخشون والد منابر (أبو تركي)، الذي تجاوز في عمره الخمسين سنة، سقط أغلب شعر رأسه، وغزت تجاعيد الجلد وجهه محيطة بعينيه السواداوين، يُحاول التشبث بأذيال الشباب عن طريق صبغ بقايا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، ويسمونه أعضاء العزبة فيما بينهم بالمُرعب؛ بسبب نظراته الفاحصة لهم، التي ترصدهم بعينيه الصغيرتين، كأنه يُفتش في أعينهم وفي وجوههم عن أشياء مفقودة، رغم عدم ارتياح ناصر لهذه الكنية لأبي تركي، وأبو تركي يتعمد رصف سيارته

الطويلة (البيجو) بجانب باب العزبة، تاركًا لابنه (تركي) مساحة كبيرة من الموقف، ليركن سيارته (المازدا) ذات الباب الواحد قُرب منزلهم، بينما يضطر سامي رصف سيارة العزبة (الكروان) بعيدًا عن باب العزبة؛ نظرًا لزحمة السيارات في نفس الشارع.

أبو تركي دائمًا يعتمر (شماغ البسام) وبدون (عقال) فوق رأسه، ولا يعرف (الغترة) البيضاء، سواء أكان في الصيف أو في الشتاء، وحتى في المناسبات والأعياد، ومن عادته أن يترك (شماغه) يزحف تدريجيًّا لمؤخرة رأسه بحرية، حتى تشرق ثلاثة أرباع من مساحة طاقيته البيضاء اللون، ثمّ يسحبه بحركة سريعة من مؤخرة رأسه لجبهته؛ لغطاء ما ظهر من طاقيته، ودائمًا يترك مسواكه القصير، المستعمل من جهة واحدة في الزاوية اليسرى من فمه، وينساه مركونًا بين شفتيه، ويُواصل حديثه دون رفعه من فمه، وكأنه مدمن سجائر، يترك سيجارته معلقة في زاوية فمه، وبين فترة وأخرى يبصق أبو تركي من ريقه على الأرض من الجهة الأخرى من فمه، ولا يعلم أعضاء العزبة عن سبب وضع هذا (المسواك) في الجهة اليسرى بدلًا من الجهة اليمنى، ويتساءلون فيما بينهم، إن كان مثل هذا التصرف له أصل في (سُنة المسواك) وآدابه، وذلك بتركه في هذه الجهة من الفم؟

أبو تركي يُصرُّ في كل فرض صلاة على ضغط جرس باب العزبة؛ لتذكيرهم بدخول وقتها، سواءً أكانوا في الداخل أم في الخارج، فدقه جرس الباب - حسب وجهة نظره - فرض عين لا يسقط بظن وجودهما في العزبة من عدمه، فيراها واجبة يُؤجر عليها، وربما يُبالغ في منهج الأمر بالمعروف، ويعتبر نفسه آثمًا لتركه مثل هذا التكليف الرباني، رغم أن العزبة ليست في طريقه للمسجد.

هددهم بالطرد من المنزل المستأجر منه إن شاهد في العزبة بعض الغرباء أو الضيوف، أو أن أحدهم طاوع هوى نفسه ورغباتها، وتجرأ بالوقوف عند الباب للتسلية بمشاهدة المارة، وأعضاء العزبة الثلاثة يتسابقون بالسلام عليه وتحيته بحرارةٍ كلما شاهدوه مقبلًا من بعيد، في محاولة منهم لكسب وده ورضاه بالطرق الدبلوماسية المشروعة، فيرد عليهم بتحفظ مبالغ فيه، ومنذ مجاورتهم له عرفوه شديد الارتياب بنواياهم الشبابية، وتختلط لديه حوافز الرغبة بتأجير المنزل المجاور لسكنه، مع كراهيتها بشكل عجيب؛ فلا يتصور بينه وبين نفسه بأن يكون البيت المجاور له سكنًا للعزوبيّة.

أعضاء العزبة في أكثر من مناسبة عند عودتهم من بلدتهم وأهليهم في أوقات الإجازات السنوية وعطل الأعياد، يُقدمون له الهدايا السخية؛ لشراء مرضاته المتعسرة في هضم وجودهم قربه، من (كعك) وأكلات

شعبية، وأنواع من (التمور) الجيدة، فيقبلها وفي قلبه شيء من هاجس الخوف والتردد في أخذها، هم يعزون تصرفاته هذه ربما تعود لتجاربه المؤلمة التي مر فيها في أيام شبابه، وربما أنه يجد صعوبة في مواجهة تلك الذكريات النازفة ألمًا وكراهية، فلم يتمكن من التغلب على لوعة مرارتها.

ويُقسم داود أنه حين ينظر عميقًا في عينيه كردة فعلٍ لنظرته لهم، يرى في بؤبؤيهما نارًا مشتعلة .. فأبو تركي يحاول دائمًا انتزاع فتيل أيّ صدام ينشأ بينهما من واقع الحياة اليومية؛ ليجد تبريرًا شرعيًّا لنفسه بطردهم من منزله.

فمشكلة الشر في الإنسان متجذرة منذ قديم الزمان، والشر يُشكل جزءًا أساسيًّا من تركيبته الجسمية والنفسية؛ لذا فإن الإنسان لا يستطيع سوى أن يؤذي الآخرين بالطرق المتاحة له .. إنها نار الخطيئة التي تكويه في الدنيا قبل الآخرة.

وأصعب حرب على النفس البشرية، الصراع بين الفضائل والرذائل، والقتال بين جيوش الشر والخير، ومن الجميل جدًّا أن نشاهد انتصار القيم الإنسانية ومبادئها الراقية أمام رغباتها السيئة.

وقال سامي معلقًا على ما سمع من كلام داود: إنها نار الكراهية تجاه الآخرين على وجه العموم، وليس لنا فقط، بل قد تتجاوزنا لآخرين؛

فبعض الناس من أمثاله، مهما أحببت لهم الخير والسعادة، تجدهم يعتقدون أن لك مقاصد دنيئة خلف هذا التقرب منهم، فدعه يُشبع نوازعه المكبوتة يا رجل.

لكن ناصرًا أعاب عليهما مثل هذا الكلام القاسي، وانتقدهما كثيرًا عليه، وقدم لأبي تركي التبريرات التي تشفع له مثل هذه التصرفات السيئة، منها عدم معرفته بهم وبأخلاقهم، والأهم من هذا وذاك حالة العزوبيّة التي ينفر منها كل أفراد المجتمع بصورة عامة، سواء أكانوا سعوديين أو مقيمين؛ فهي تعتبر ولادة غير طبيعية في المجتمعات المدنية المعاصرة، ولكن هنالك الخير في الإنسان كذلك، كما قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس]. والحياة ما هي إلا ساحة يتصارع فيها الخير والشر في نزاع أزلي، يتخذ أشكالًا متعددة ومختلفة، حسب الزمان والظروف.

(4)

إنها جارتهم (منيرة)، والتي يُناديها والدها بمنيّر .. في بعض الأحيان يسمع أعضاء العزبة صوته عبر الجدار المشترك بينهما، ولهذا كانوا حريصين جدًّا على خفض صوت جهازي التلفاز والمذياع، وصوت جهاز التسجيل الذي يعمل على مدار الساعة دون توقف؛ خوفًا من تسرب صوت الأغاني عبر شقوق جدار (المنور) المشترك بين المنزلين، بينما يصرُّ ناصر على مناداتها بمناير في حضورها وفي غيابها .. لقد أحبها بإخلاصٍ، وأحبته بهيامٍ .. كل منهما جمعه وطن الغربة بحارة الصالحية في الرياض، فوالدها الذي أحضرهم من قريته التي نشأ فيها وترعرع، بعد أن وجد له وظيفة مناسبة .. كاتب بالمرتبة الرابعة في (ترنك) الرياض، فباع مزرعته التي ورثها عن أبيه، واشترى هذين البيتين في حارة الصالحية؛ نظرًا لوجود بعض معارفه الذين يُقيمون فيها.

أما ناصر فَقَدم من مدينته، كما فعل كثير من رفاقه وأقرانه عقب إنهاء دراسة المرحلة الثانوية، بعد أن أقنع أخواله بأهمية مواصلة الدراسة في جامعة الرياض، رغم شدة معارضة خاله الكبير حمد له، كان يخشى عليه من مفاجآت الغربة والزمن وهو بعيد عنهم، ولكن ناصرًا أصر على رأيه؛ حتى تمكن من انتزاع موافقته بدعم من والدته (زكية)، التي هيّجت عواطفها الأخوية نحو إخوانها، فجاءت به سيارة أحد أقاربه لمدينة الرياض؛ ليستقر في منزلهم ضيفًا بضعة أيام في حي (الطويلعة)، ثمّ يُرتب أوراقه للانتساب لجامعة الرياض، فينتقل للسكن الجامعي المخصص لطلاب الجامعة، الواقع في نهاية شارع (الوشم)، فيتعرف على بعض أصحابه المستجدين في الجامعة، فيُقرروا فيما بينهم هجر السكن الجامعي غير الملائم لحياتهم، وينتقلوا للعيش في عزبة (حارة الصالحية).. ناصر لا يعرف ملامح والده .. لم يشاهده في حياته، وكان بدايةً يظن بأن جده لأمه هو أبوه .. سمع أيام شبابه عن سيرة والده روايات كثيرة .. بعضها نسجتها له والدته من خيالها في أيام طفولته، عن صور مشرقة لأبيه، كلها شهامة ورجولة، وأخرى سمعها من أهله وأقاربه ومن مجتمعه، بعضها في صور مأساوية مرعبة .. فرواية تقول عنه إنه مات، ربّما سقط في (قليب) مزرعة قديم، ليس له قاع، عندما كان

في رحلة برية مع أصحابه لصيد الحمام، فلم يعثروا على جثته بعد أن بحثوا عنها فترة طويلة، ورواية ثانية تقول: أصابته حالة نفسية في حب العزلة عن مجتمعه، لسبب يجهله أهله وأقاربه، فذهب للبر هاجرًا زوجته وابنه الرضيع ولم يرجع منه، ورواية ثالثة تقول: إنه دخل الغوص مع مجموعة من الرجال في (البحرين) ولم يعودوا منه.

لم يخبره أحدٌ بحقيقة سيرة والده، بأنه قاتلٌ وهاربٌ من قبضة العدالة، إلى حيث لا يعلم أحد، ثمّ انقطعت أخباره، حتى ظن بعض أهل مدينته، أن أهل المقتول قد أخذوا بالثأر لابنهم منه وأخفوا جثته عن ساحة الجريمة، وكانت أمه أيام طفولته توصيه دائمًا إذا سأله أحد عن أبيه، أن يقول لهم إنه مسافر لمكان بعيد، وسوف يعود إليهم قريبًا إن شاء الله.

وفي أيام شبابه كان ناصر يلح على أمه في السؤال عن سيرة أبيه بكثرة، فكانت تهرع للصلاة في آخر الليل تُناجي ربها، وتُطيل في سجودها، فكان ناصر يسمع شيئًا من دعائها ومناجاتها لربها، وهي لا تشعر به، تظن أنه نائمٌ، كانت تُردد هذا الدعاء: يا رب اصرف قلبه عن سؤاله عن والده، يا رب أشغله بمستقبله، واحفظه من كل شر، يا رب اغفر لأبي ناصر الذي تركني أواجه هذا البلاء لوحدي، يا رب اغفر له ولا تكشف له سرًّا عند عبادك.

بدأتْ علاقة ناصر بمناير بتبادلِ نظرات الإعجاب من بعيد، كبدايات العلاقات البشرية بين الجنسين في كل مكانٍ وزمانٍ، نظراتٌ سريعة مغتصبة، عمرها لا يتجاوز اللحظات في قياس الزمن، ولكن فيها من الحكايات الكثيرة في روايات العيون، في أوقات خلوة النفس وتداعي ساعات الذكريات الماطرة.

نظراتٌ عند الأبواب، وأعينٌ تتراقص رموشها خلف زجاج السيارات، ثمّ تبادلا الرسائل الورقية الملونة، وأشرطة الأغاني الكاسيت الحديثة لمحمد عبده وطلال مداح، عبر بريد الجدار المشترك للسقف بين المنزلين المتلاصقين، الذي يتجاوز ارتفاعه الثلاثة أمتار، وكأنه سور سجن، كتب لها خواطره وأشجانه وأشواقه، في محاولات شعرية، لا يعلم إن كانت ناجحة أو فاشلة، فالكتابة كانت متنفسًا لحبهما، وحب غيرهما من العُشاقِ، كل مجتمع له طقوسه الخاصة التي يُمارس بها الحُب، فإن كان الحُب في (مصر) يُمارس في الشوارع العامة وأمام أعين الناس، وفي دور السينما، وفي المواقف المتعددة الأدوار، وفي الحدائق العامة، وعند الشواطئ والميادين المختلطة، فإن الحب هنا يُمارس في الأزقة المخنوقة، وبين الجدران الشاهقة المستورة، وخلف الأبواب الحديدية والشبابيك الموصدة.

في بعض الأحيان يرتكب ناصر أحد المحظورات، فيأخذ جهاز المسجل معه (للسطح)، فيرفع صوت الجهاز؛ لتسمع (منار) صوت (العندليب الأسمر) وهو يصدح برائعته (أية دمعة حزن لا ...)، ولقد كانت كلمات خاطرته (اعترافات) التي كتبها لها خمرًا ملأت عقلها حبًّا وهيامًا، وذهبت بصوابها، وسحر لبها:

سأعترف في التحقيق:

كيفَ اغتصبتِ قلبي!!

يوم كان عقلي في إجازةٍ.

كيف سرقتِ الكتابات من قلمي!!

كيف فرضتِ عليَّ حُبكِ دون خشيةٍ!

سأعترفُ في التحقيقِ:

بأني عصفورٌ غريبٌ في الحبِ ..

فليس ذنبًا بأني:

عرفتُ في التوحيد لغة الغرام!!

سأقولُ:

إن كان في الحكمِ ذنبٌ ..

فهو ذنبها!!

إنها من رمتْ القراطيسَ لدارنا!!

والسورُ بيننا شاهدٌ على ذنبها ..

إنها من خطفتْ العقلَ

عند البابِ والشباكِ معًا.

إنها من علمني التغريدَ

في البداية ..

إنها من علمني كيف أحبها!!

سأقولُ:

اقرأوا كل دفاتري ..

ابحثوا بين الأوراقِ ..

نقبوا ما بين السطورِ ..

فتشوا محبرة أقلامي ..

خبأتها في كل مكانٍ ..

هذا تاريخي المجيدْ!!

اسألوه منذ عهد غير بعيد ..

فقلبي ما عرفَ مثلها ..

وما أحببتُ كحبها!!

هذه دمائي:

فحمرته من شفق شفتيها ..

وعطره من روح وجودها ..

حللوُّه:

من الوريدِ إلى الوريدْ!!

لن تجدوا غير حُبها ..

ليس لي حب سواها!!

هذه ثيابي ..

ألبسُ ما يُناسب ذوقها ..

كل ما فيَّ من لمساتها!!

هذه أقلامي:

اسألوها من أتى لي بها؟

هل هنالك غيرها؟

هذه أوقاتي:

من رفع الظلام عنها؟

وأدخل الضياء فيها؟

هذه غيماتـــي:

من صيّرها في العزبة مطرًا لنا؟

فردت منايـر برسالة نثر مختصرة، لا تقل هيبة عن ما كتب ناصر لها، بعد أن سرت في أوصالها رعشة خفيفة منعشة، حركت فيها مشاعر لم تكن تظن أنها مكنوزة في داخلها، كانت حياتها كالأرض الميتة التي سقطت عليها فجأة قطرات المطر، فاهتزت وربت وأنبتت فيها شجرة الأمل، فها هو جارهم (ناصر) بكل جرأة يُصالحها مع نفسها المهملة،

ويكشف لها أنوثتها المنسية، ويجعلها تكتب له نصًّا أدبيًّا عذبًا يليق بمقام الحدث والمناسبة، وللبدايات دائمًا تفاصيل صغيرة، غالبًا ما تكون إيحاءات روحية لا نشعر بها:

- قرأتُ في عينيكَ أن الحبَ قدرٌ، فكنت أنتَ أجمل أقداري، وأن بالأقدار مواعيدٌ، وعندكَ تنتهي كل مواعيدي .. لقد كان قلبي مُحصنًا ومُغلقًا، فَهدمتْ عيناكَ حصوني، وكسرت كل أقفالي، فأنت سيدُ الموقف في عالمي، وما تأمرني به لكَ سمعي وكل طاعاتي.

(5)

ناصرٌ يقتنص أية فرصة مناسبة حين يرى بعض شبابيك المجلس المطلة على الشارع منسية، أو حينما يُشاهد الباب الخارجي لمنزلها مواربًا قليلًا، فأحيانًا منايـر تقف خلفه تنتظر رؤيته، ولتعطيه فرصة كافية لرؤيتها بمروره في محاذاة الباب .. في بعض الأحيان ترتكبُ منايـر خطأ بحق عادات وتقاليد مجتمعها، فتخدش تعاليم التربية المتوارثة في حياء البنات في مجتمع محافظ بقوة على تقاليده الاجتماعية والدينية، فتُلوحُ لناصر بجرأة بيدها من داخل الباص الأصفر، في غفلة من (سائق الباص) العم (مناحي) وحرمه المصون، عند مرورها بالقرب من مغسلة (البراحة).

قضيا ناصر ومنايـر كثيرًا من الساعات الطويلة في الليّل والنّهار بالحديث في جهاز الهاتف، تسرق جهاز الهاتف الأحمر ذا السلك الأحمر

الطويل كذلك، الذي يتجول بحرية بين الغُرف في مهمات سرية خاصة، في آخر الليل من صالة المنزل لغرفتها، من دون شعور أهلها.

غرفتها المركونة في مؤخرة المنزل، المُشبّعة برائحة عطر (أرامس) الرجالي الذي يعشقه ناصر، أو تأخذ جهاز الهاتف لغرفتها في ساعات النهار؛ بحجة (حل الواجبات المدرسية) مع زميلاتها في الفصل، كتبرير شرعي لأهلها .. أختها (موضي) التي تلاعب حَب الشباب في وجهها، فسحق لها نضارة خديها، فكافحته بأنواع الكريمات الفرنسية الصنع، تعرف أدق التفاصيل عن حياة أختها (منيرة)، فهي كاتمة أسرارها ومستودع همومها وطموحها .. تظهر عليها البدانة نوعًا ما، عكس أختها منيرة النحيفة البنية، بيضاء شاحبة، بعينين عسليتين كبيرتين، وتشتكي دائمًا من ضعفها، رغم أنها تأكل بشراهة، وبشكل غير طبيعي ولا تسمن، وكل من حولها من النساء يحسدنها على تقاطيع رشاقة جسمها؛ مما جعل أمها تُحصّنها في خروجها من البيت، وتقرأ عليها المعوذات في كل المناسبات، وفي أي تجمع نسائي تذهب إليه؛ خوفًا عليها من شر الحسد والعين، وتنسب والدتها كثرة تعرّق أطرافها وشدة ارتفاع درجة حرارتها في أثناء الليل للعيون الحارة التي تحوم حولها، التي لا تذكر اسم الله عليها؛ مما اضطرها أن تأخذ ابنتها منيرة لشيخ مشهور جدًّا في حي (البديعة)؛ ليقرأ عليها مما يحفظ من رقية شرعية، ثم يصف لها قارورة ماء مقري فيه، لتشرب منه جرعات قبل النوم لمدة أسبوع كامل.

(موضي) أحيانًا تُحاكي تصرفات أختها (منايـر) بجـدارة، وتغـرف مـن معين سيرتها المتدفقة الدافئة بالنشاط والحيوية، ولديها حب التقليـد في كل شيء .. تُقلد كل من تشاهده حتى لأول مرة، من نساءٍ ورجالٍ وأطفالٍ، وكثيرًا ما تلبس (الشماغ) الأحمر وتتقمص شخصية (نـاصر) في وقفتـه عند المغسلة أمام (منايـر)، فتُحاكي حركة يده التي يلوح لها بحياء؛ بسبب خوفه من العيون المتلصصة عليهما، أمام حضور أمها، دون شعور منهـا بما تعنيه (موضي)؛ مما يغيظ مثل هذه التصرفات (منايـر)، فتلحـق بهـا؛ لتضربها على جرأتهـا لإجـادة الدور الذي تعـشقه، فتـضحك أمهمـا على تصرفاتهما الصبيانية.

تعلق قلب (موضي) في حب ابن عمها (عبـد الله)، الـصديق الـوفي الروحي لأخيها تـركي، الذي يـدرس معـه في الجامعـة، فتبـادلا الرسـائل الغرامية، والأشرطة الغنائية، واستغلا فرص اللقاءات العائلية الكثـيرة؛ للتعارف فيما بينهما أكثر، ووعدها بالخطبة قريبًا من عمه.

(6)

إنها الشابة منايرِ، وإنه الشاب ناصر .. قصةُ حبٍّ نمت وترعرعت في حضنِ مجتمع لا يعرف نكهة الاختلاط، ويرى عدم جواز مشروعيتها في كل ميادين الحياة، وقد حماه الله سبحانه وتعالى بالتزامهم بالدين الحنيف .. مجتمع يعيش فيه جنسان متباعدان عن بعضهما بعضًا .. كل أفراد المجتمع يخشون التقارب والتماس بينهما، وكل من الجنسين يهاب الاحتكاك بالآخر، ولكن في حقيقة الأمر أحدهما متربص بالآخر؛ كي يقع فريسة له في قادم الأيام، ينظر كل جنسٍ منهما للآخر بأنه غريب عليه، ومجهول بالنسبة له، وكأنه قادم من كوكب آخر وعالم ثانٍ؛ لذا كان عليه ضرورة اكتشاف مواطنه الجغرافية، ومعرفة أحوال مناخه بالطرق الشرعية وغير الشرعية.

في آخر سنةٍ دراسية للثانوية العامة، تقدمَ لمناير شابٌ من عشيرتها الأقربين .. ذو منصبٍ وجاه، فترفض مناير الاقترانَ به، وقد قدمتْ لذويها التبريرات اللازمة التي تشفع لها رفض الاقتران به.

وتقدمَ لها آخرٌ، لا يقل مواصفات عن الأول، فرفضتْ كذلك للتبريرات السابقة نفسها دون تردد، رغم استغراب أهلها منها، وبالذات والدها .. بررت لهم رفضها بسبب رغبتها مواصلة الدراسة الجامعية (عزباء)، فالزواج بالنسبة لها يُعتبر مسئولية كبيرة، وهو أحد العوائق الرئيسة لمواصلة الدراسة الناجحة، ولديها من الطموحات الكبيرة في المستقبل لمواصلة الدراسات العليا بعد تخرجها إن شاء الله.

ناصرٌ أكمل السنة الثانية من دراسته في كلية التجارة فرع المحاسبة بتقدير ممتاز .. طلب من أخواله الزواج المبكر، مختلقًا لهم أسبابًا واهيةً لم تُقنعهم، والتي أهمها صعوبة الغربة في مدينة الرياض، ومشاكل الحياة العزوبيّة الصعبة التي يُعاني منها، ولكنه في حقيقته كان يُخفي خوفه الشديد من اختطاف حبيبته (مناير) من هؤلاء المستطرقين لخطبتها، وخوفه من إصرار أبيها في يوم من الأيام عليها من أجل قبول من يقتنع به زوجًا لها، فيجبرها على الاقتران به.

خاله الكبير انتقد طلبه بشدةٍ وحزمٍ، وقال له: سوف نساعدك ونقفُ معكَ في مشروع الزواج بعد تخرجك من الجامعةِ إن شاء الله.

ناصر لم يلتفت لـرأي خـاله صـاحب الخـبرة في الحيـاة، وقـرر تـرك الدراسة الجامعية، والعمل في أحد المصارف في قسم المحاسبة؛ من أجـل جمع مهر الزواج وتكاليف الحياة الزوجية، دون علـم والدتـه (زكيـة)، التي تركها عهدة عند أخواله؛ خوفًا من أن تُخبر خـاله الكبـير، محـاولًا بالوقت نفسه مواصلة دراسـته الجامعيـة منتـسبًا لجامعـة الملـك عبـد العزيز في (جدة).

عانى (ناصر) كثيرًا في بداية عملهِ؛ بـسبب حداثتـه، وعـدم خبرتـه الكافية في الحياة العمليـة، وكان لوسـامته أثـر سـيئ على نفـسه؛ فـبعضُ الموظفين من سعوديين ووافـدين في المـصرف معـه ينظـرون إليـه نظـرة خاصة، فيها ما فيها من السقط واللغط والغـزل وقلـة الأدب، فـكان لا يعيرهم اهتمامًا، ويتجاهل نظرتهم الدنيئة الوقحة إليه في بعض الأحيان، وبالوقتِ نفسه يقدر لهم مشاعرهم الطائشة في مدينـة غاب فيهـا رؤيـة جمال النساء وحسنهنّ، فهم لا يُشاهدون من النساء غير نـصف قطعـة قماش بلون أسود، والنصف الآخر فستان يُغطي مـا أسـفل الكعبـين .. يتحرك في الشوارع والأسواق كدبيب نمل لا يمكن أن تفرق بينه.

(7)

في أكثر الأحيان يتحدث ناصر مع منایر في جهاز الهاتف بعد منتصف الليل، عن الأمنيات والأحلام كمشروع مرن قابل للتحقيق بمشيئة الله، وأن الأحلام التي لا تتحقق حتمًا ستموت في بداية نموها، وكعادته في كل ليلة .. سهرة مع صوت منایر، ونقاش حول موضوع جديد، يستعرض فيه فلسفته ومعرفته الشاملة في نواحي الحياة، منذ أن تعرَّف عليها، وحكايات حب وغرام لا تنتهي أبدًا، وشفرة الاتصال بينهما عادة تكون رنة واحدة لجهاز هاتف العزبة من منایر، ثمّ تُغلق الهاتف، وتنتظره قرب الجهاز ليتصل بها، أو إذا أراد (ناصر) أن يتصل بها عليه أن يذهب لكبينة الهاتف العمومي القريب من بقالة (يس)، فيتصل عليها برنة هاتف ثمّ يُغلقه، فيعود قافلًا للعزبة بسرعة منتظرًا اتصالها على رقم هاتف العزبة؛ لأن في جهاز هاتفهم كاشف للأرقام،

وأبو تركي يحفظ رقم هاتف العزبة، فالرقم مسجل باسمه، ورفض تحويله باسمهم.

وفي أثناء دفء حديثهما عن مستقبل قادم الأيام؛ إذ بناصر يسمع طرقًا خفيفًا على باب الحديد، كأنه نقر عصفور على زجاج شباك أرهقه البرد والجوع، يستنجد بمن هم في الداخل، وكأن طارقَ الباب مترددٌ، لم يكن ملحًّا في طلب من في داخل المنزل .. استأذن منها في الرد على هذا الزائر غير المعروف في آخر الليل، فطلبت منه أن يُطمئنها فيما بعد باتصال هاتفي؛ كي تنام ولا تقلق عليه، ففي قلبها خوف عليه، فأغلق جهاز الهاتف بكل هدوءٍ، وكأنه لا يُريد من طارق الباب أن يسمع صوت إغلاقه لجهاز الهاتف .. وقف خلف الباب الصامت، الذي ليس له متنفس للعين على من في خارجه .. فلا عين سحرية ولا ثقوب في جسد الحديد.

كان ناصر مترددًا في الرد على الطارق، وفي داخل نفسه عدة حسابات متصارعة فيما بينها، لا يعرف من أين يبدأ فيها ليحذف أول هذه الاحتمالات المتقاتلة، التي بدأت تتقاذف بسرعة مخيفة لدائرة تلك اللحظة .. توقعات كثيرة انهمرت عليه في حينها، مثل هطول مطر مدينة الرياض، الذي يأتي في بعض الأحيان سريعًا دون مقدمات .. زوبعة غبار شديدة الهبوب، تقذف في المدينة ما في معدة الصحراء، فتضعف الرؤية،

ثمّ مطرٌ لا يترك لأهلها فرصة الاستعداد لاستقباله والاستمتاع بقطرات هطوله.

استغرب ناصر من هذا الزائر كثيرًا .. ظن أنه يطرق الباب بقبضة يده، من نقطة انثناء أصابع يده الأربعة، وبهدوء تام، تاركًا وقتًا كافيًا بين الطرقات؛ ليسمعه من في الداخل، بينما كان زر جرس الباب متاحًا له، ولكنه لم يستخدمه؛ مما أثار دهشته واستغرابه، هل لأن هذا الزائر لم يُشاهده رغم وضوحه للعيان؟ أم أنه كان مترددًا؛ خوفًا من إيقاظ من بداخل العزبة في مثل هذا الوقت المتأخر من الليّل؟

- من بالباب؟ سأل ناصر الطارق ..

- جَمال (ابن خالة داود).

فتح له ناصر الباب، بعد أن استبدل ثوب نومه الصيفي الذي كان يرتديه .. كعادته لا يخرج بملابسه المنزلية للناس، فنظر لمن يقف بالباب، إذ به شابٌ يصغره بعام أو بعامين، ذو لحية شعرها ناعم وخفيف، لم يعترض نموه شفرة الحلاقة في حياته، وشنب أتى عليه المقص لتخفيفه، فرحب به بعد أن عَرَف من لهجته العامية أنه قادمٌ من مدينته، وسبقه جمال في السلام عليه ومصافحته بحرارة:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- وعليكم السلام ورحمة الله.

- هل هذه عزبة ابن خالتي داود؟

- نعم، لدينا أحد أعضاء العزبة اسمه داود، ولكن لا أعلم إن كان هو نفسه ابن خالتك أم لا، تفضل مرحبًا بك.

كان جمال يحمل بيده اليسرى حقيبة جلدية من الحجم الكبير، ذات لون بني .. بالتأكيد أنها موروثة من أهله وليست جديدة، وأنها من الموروثات التراثية القديمة، فآثار الزمن واضحة للعيان على ملامحها، فتلاعبه في انحناءات زواياها الحديدية، مربوطة بحزامين من الجلد عند نهاية طرفيها.

صافح ناصرًا ووضع الحقيبة التي كان يحملها فوق عتبة الباب المرتفعة ثلاث درجات عن منسوب الشارع؛ خوفًا من سيول الأمطار التي تُهاجم المنازل قادمة بسرعة من دوّار الصالحية؛ بسبب انخفاض ميول الشوارع الداخلية للحارة عن الشارع الرئيس، وذهب جمال عند باب سائق السيارة يتحدث معه، لم يسمع ناصر ماذا كان يقول له، وظن أنه بالتأكيد يشكره على إيصاله لهم، أو طمأنه بأنه وجد العزبة التي يبحث عنها، ثمّ ودعه بحركةٍ من يده.

حاول ناصر - بشهامة - مجاملة جمال، فوضع يده على حقيبته لرفعها؛ لمساعدته في الدخول من الباب الضيق، لكن جمالًا رفض ذلك، وأصر

على حملها بنفسه ودخل للعزبة، وبدأ يتفقد معالم العزبة التي حدثه عنها ابن خالته داود في رسائله الكثيرة .. عن أسقفها وجدرانها المصبوغة باللون الزيتي الأبيض، وفي الجزء الأسفل منها باللون الأخضر الزيتي الداكن .. لقد رسم له موقعها بالضبط، من دوّار الصالحية حينما يكون قادمًا من (حلة العبيد)، متجهًا شرقًا نحو دوّار الخرج، فوجد العزبة من النظرة الأولى طبق الأصل لما ذكرها له ابن خالته.

التفت إليه ناصر لفك حصار الصمت الذي ران بينهما في تلك اللحظات، وسأل جمال:

- هل تريد أن أخبر (داود) بوصولك؟

- أين هو الآن؟

- نائم في الغرفة الداخلية، وسامي نائم في المجلس.

- إذا أنت ناصر؟

- نعم، ولكن كيف عرفت؟

- حدثني عنكما كثيرًا ابن خالتي داود، ووصفك بأنك رومانسي العزبة وشاعرها، وسامي بأنه سائق العزبة النجيب، ومدير المشاوير، ومسئول التسوق (مقاضي العزبة)، أما داود ابن خالتي فهو طباخكم الماهر، الذي لا يُنافسه أي مطعم في الرياض بروعة طبخاته الشعبية ..

هو تلميذ خالتي (دلول)، التي علمته كل الطبخات، ولقد صدق ورب الكعبة ابن الخالة في وصفك بـالرومانسي، والعصفور المغرد بالعزبة.

- شكرًا لك ولابن خالتك، رغم أني لا أعلم هل هذه مسبة منه أم مدح لي؟ وسوف أساله غدًا إن شاء الله، عمومًا مرحبًا بك يا ابن خالة طباخنا داود.

استغرب ناصر كثيرًا من سرعة تناقل الأخبار بين الناس، بخصوص أوصاف وصفات بعضهم لبعض، وخشي أن يكون داود قد أخبر جمالًا عن السر الذي يربطه بحبيبته منایر، وشغل تفكيره أكثر من هذا، كيف سيتكلم معها بالهاتف في ظل وجود جمال معهم في العزبة؟ وكيف سيدخل جمال للعزبة ويخرج منها دون أن يكتشفه جارهم (أبو تركي)؟ المُترصّد لكل صوت يسمعه فيها، ويعلم ناصر جيدًا أنهم وافقوا في عقد الإيجار على شرط عدم استقبال ضيوف وزوار في العزبة بكل الأوقات.

- جمال، هل تناولت العشاء؟ سأل ناصر.

- الحمد لله، أريد كأس ماء فقط يا أخي العزيز.

- هل أعمل لك (براد شاي)؟

- لا، وجزاك الله خيرًا يا أخي العزيز.

- أجل، هيا معي لأعرّفك على منافع مطبخ العزبة، الذي تفوح من مدخله رائحة (القُلابة) اللذيذة، التي يُجيد طبخها ابن خالتك داود .. الخلطة السرية (الداوديّة)، لا يعرفها غيره، فهذا طبّاخنا نستغل فرنه الكبير الذي في أسفله لتخزين بعض الأواني والقدور، وهذه التي تئن بصوتها (الونان) سيدة العزبة (الثلاجة)، نحن نشرب من ماء هذه (الحنفية) التي لا يقف تسريب مائها، لا في الليّل ولا في النّهار؛ بسبب استهلاك عمرها الزمني المفترض .. نملأ قوارير (الفيمتو) الفارغة بالماء، ونضعها في الثلاجة ليبرد الماء فيما بعد، ماء هذه (الحنفية) يأتي مباشرة من أنابيب مصلحة المياه، لا يمر الماء عبر دورة الخزانات الأرضية والعلوية، التي عادة ما تتكاثر فيها الصراصير والديدان، وتجول في سقوفها العناكب والحشرات.

- عفوًا، يا أخي ناصر: الساعة كم أذان الفجر في الرياض؟ وهل يُوجد مسجد قريب من العزبة؟

- وقت أذان الفجر الساعة الرابعة، والمسجد قريب جدًّا، في نهاية الشارع على يدك اليسار، ومنارته ليست شاهقة الارتفاع كما تتوقع، وغير مضاءة ليلًا، فجميع مصابيحها كسّرها أطفال الحارة؛ لأنها أبرز الأهداف لـ (نبيطاتهم)، وليس من السهل عليك مشاهدتها، ولكنك سوف تسمع صوت المؤذن من هنا، فسماعات المسجد كثيرة جدًّا.

احتار ناصر كثيرًا فيما يفعله مع هذا الضيف الذي فاجأه بحضوره، في مثل هذا الوقت المتأخر من الليّل، ولم يخبرهما زميلهما داود عن قدوم ابن خالته، وكان من المفترض على داود إخبارهما؛ ليستعدوا نفسيًّا على الأقل لاستقباله.

واحتار ناصر في أمره، هل يُخبر جمالًا بضرورة عدم ذهابه للصلاة مع جماعة المسجد، ويُكاشفه في حقيقة الأمر؟ ويشرح له شدة خوفه من رؤية أبي تركي (صاحب المنزل) له، أم يُوقظ ابن خالته داود ويترك المهمة المتعسرة له؟ فيقوم بمعالجتها بطريقته الخاصة، بدلًا من أن يكون هو في الواجهة، وتقع عليه المسؤولية.

- جمال، أين تفضل أن تنام؟ أفي المجلس (غرفة الضيوف)؟ أم في الغرفة الداخلية (غرفة النوم) الوحيدة بالعزبة؟ سأله ناصر.

- ليس لدي فرق بينهما، وأترك الأفضلية لك يا أخي العزيز ناصر.

- في المجلس شباكان كبيران يطلان على الشارع مباشرة، يساعدان المروحة السقفية كثيرًا على هضم أنفاس من في داخله، وتلطيف الجو فيه، وأنصحك أن تنام في المجلس، وابن خالتك يُفضل النوم على سرير الحديد في الغرفة الداخلية، بعيدًا عن ضوضاء وحركة الشارع في

الصباح الباكر، وبعيدًا عن إزعاج سيارات الموظفين المتوجهين لأعمالهم، وصوت بعض الأطفال الذاهبين لمدارسهم.

- أُفضل الغرفة التي ينام فيها ابن خالتي إن أمكن يا أخي، فعندما يستيقظ صباحًا سيُشاهدني، هو لديه علم بمجيئي إلى هنا .. إنه يعلم أني سألتحق بالمعهد العلمي بالرياض.

هيَّأَ ناصر لجمال المكان المناسب للنوم، وتركه ليرتاح في الغرفة الداخلية التي ينام فيها ابن خالته، بناءً على اختياره .. ابن خالته ذو الشّخير الذي لا يهدأ صوته أبدًا خلال فترة الليّل، وأغرب ما في صوت شخيره، أنه ليس على نمط واحد ووتيرة واحدة، يبدأ هادئًا في أول الليّل، ثمّ يرتفع تدريجيًّا بأنغام متنوعة.

في أكثر من مرة سجلوا له صوت شخيره أثناء نومه على شريط كاسيت؛ ليسمع صوت شخيره بنفسه؛ ليبرهنوا له على شدة انزعاجهم منه أثناء نومه، فكانت ردة فعله غير متوقعة منه مطلقًا .. غضب منهم غضبًا شديدًا من هذه التصرفات التي وصفها بالأعمال الصبيانية، وقام بتكسير شريط الكاسيت ومعه المسجل كذلك، ومن اعتاد أن ينام معه في الغرفة يشترط عليه النوم قبله؛ كي لا يسمع عزفه المنفرد أثناء الليل.

وضع ناصر رأسه على وسادته، والأفكار تتقاذفه وتتلاعب في رأسه من كل صوب وحدب مرة أخرى، وأولها كيف سيتحدث مع حبيبته

(مناير) في جهاز الهاتف بوجود هذا الضيف؟ وماذا سيفعل أبو تركي عندما يكتشف مثل هذا الضيف في العزبة؟ وهو لا يُريد أن يصطدم بمفاجأة لم يعملوا لها حسابًا .. عليه أن يُخبر ابن خالته داود بكل صراحة، والمسألة ليس فيها مجاملة، فليبحث لابن خالته عن مكان آخر يُؤويه، وعليهم ضرورة إخبار أبي تركي بخصوص استقبال هذا الضيف لمدة يومين أو ثلاثة أيام، ريثما يجد المكان المناسب له، ولكن ما هذا الاهتمام الشديد الذي نسمعه من ناصر؟ هل هو لشدة حرصه على الوفاء ببنود عقد الإيجار؟ أم لخوفه من جمال أن يكتشف أمر علاقته السرية بمناير؟

(8)

عندما استيقظ، داود شاهد ابن خالته (جمال) نائمًا، فعلم بمجيئه المتأخر ليلة البارحة، حاول عدم إيقاظه من نومه؛ حيث يعلم بأنه قادم من مكان بعيد، فتحرك في الغرفة بهدوء، ومشى على رؤوس أصابع قدميه؛ كي لا يُزعج ابن خالته، لكن جمالًا شعر بحركة ظله داخل الغرفة المظلمة، وسمع صوت سرير الحديد الذي كان نائمًا فوقه، فاستيقظ منزعجًا لخروج وقت صلاة الفجر عن وقتها المفروض، ولام نفسه كثيرًا على هذا التهاون والتقصير في مثل هذا الأمر، وعليه ضرورة شراء ساعة منبهة (خراشة)؛ لتساعده على المحافظة على أداء صلاة الفجر في وقتها المفروض.

رحب داود بقدوم ابن خالته بعد أن تعانقا طويلًا، وسأله عن أخبار خالته (الجوهرة)، ووالدته (دلول)، وآخر أخبار أهل الديرة.

- جمال، تعال معي لأعرّفك على مطبخنا، ونعمل (شكشوكة) العزوبية .. (قال له: داود).

- يا أخي العزيز، لقد عرّفني الرومانسي (ناصر) على مطبخكم ليلة البارحة، وتعرّفتُ على ثلاجة العزبة كذلك.

- هل ترغب أن تذهب معي اليوم بعد الفطور للجامعة؟

- لا يا أخي العزيز، سوف أذهب لقسم القبول والتسجيل في المعهد العلمي، وأستكمل الأوراق اللازمة لقبولي، رغم تأخري بالتسجيل في هذا العام الجديد، ولكن وعدني أحد المعارف في قسم القبول والتسجيل خيرًا.

- إذن موعدنا هنا بعد صلاة الظهر، سوف تأكل (كبسة) العزبة، أرجو أنك حفظت طريق العودة للعزبة جيدًا، أما الطريق للمعهد العلمي فهو سهل جدًّا من هنا، سنأخذك معنا في طريقنا للجامعة، وبإمكانك العودة لوحدك، وخذ نسخة من مفتاح باب العزبة الخارجي؛ لأنك ستأتي قبلنا جميعًا بالتأكيد، وعند عودتك قطّع لنا رأسين من (البصل)، وأربع حبات من الطماطم رجاءً .. وعلى فكرة، في منطقة (حلة العبيّد) موقف (أتوبيسات) مع (وانيتات)، سوف نمر عليها في طريقنا وستشاهدها واقفة .. هذه السيارات تنقل الركاب من (حلة العبيّد) لدوّار الصالحية

بأربعة (قروش) .. اركب (الوانيت) الذي يسمونه محليًّا (أبو عزيّز)، هو أسرع من الأتوبيس في خفة حركته بالشوارع، ولا تنسَ إذا وصلت لدوّار الصالحية أن تضرب بيدك على (الرفرف) من داخل صندوق (الوانيت)، أو من أي مكان يُوجد فيه حديد؛ ليسمعه السائق، وتقول بصوت عالٍ: (على جنب)؛ كي يقف لتنزل من صندوقه، فسائق البيك آب يتوقف حسب رغبة الركاب، وليس له محطات خاصة يتوقف فيها أثناء خط سيره. بعض أصحاب (الوانيتات) وضع زر جرس باب عادي في داخل الصندوق المسقوف، يضغط عليه الراكب إذا أراد الوقوف في المكان المناسب له؛ ليسمع السائق صوت الجرس داخل كابينة القيادة، فيتوقف.

والمحطة الأخيرة لهذه السيارات في دوّار (الخرج)، وهي بعيدة عن العزبة قليلًا إن تجاوزت دوّار الصالحية؛ لذا عليك تنبيه السائق عند وصولك لدوّار الصالحية كي يقف.

ثمّ تعود هذه (الأتوبيسات) و(الوانيتات) من دوّار (الخرج) لموقف حلة (العبيّد) مرة أخرى، مواصلةً خط سيرها لسوق (البطحاء)؛ حيث الموقف الرئيس لها هناك، ويُعتبر مكان تجمعها، خلف مبنى (ستي بنك)، ثمّ تنطلق من موقف (البطحاء)، الموقف المزدحم بالسيارات إلى كافة أحياء الرياض الأخرى، البعيدة منها والقريبة.

جمال في ذلك الوقت عندما كان يسمع محاضرة ابن خالته داود، عن وسائل النقل والمواصلات في الرياض، كان غارقًا في النظر بعيدًا جدًّا عن ما كان يسمع .. كان خارج بؤرة لحظة الزمان والمكان، الذي يعيش فيها تلك الساعة، كان يُحدق بتفاصيل حزمة ذكريات ملونة عن مدينته الصغيرة، وعن عالم طفولته، فكانت صور تلك الأماكن تتحرك أمامه في الأفق البعيد كشريط سينمائي لا ينتهي، فيسمع من تلك الأماكن أصوات سكانها وهم يتكلمون .. كان ساهمًا لا يتكلم، وكأنه إن تكلم سيكشف سرًّا رهيبًا يخشى افتضاحه.

وهكذا هو حال المفارقين لأهلهم وديارهم في أيام غربتهم الأولى، وكان جمال في حينها يُداري دمعة تكاد تقفز من عيّنيه، وهو يحاول أن يمنعها عبثًا، وبدلًا من أن يرد على محدثه ابن خالته، ويُجاريه في حديثه، أدخل يده في جيبه الأيمن، وأخرج منها كيس نايلون صغير شفاف، بداخله (مسبحة) صفراء اللون، من النوع الذي يسمونه (كهرب)، وقدمها هدية لابن خالته داود بصمت، بينما مد داود يده لجيبه، فأخرج منه علبة سجائر (أبو بِس)، وسحب منها حبة بين أسنانه، بمساعدة لسانه بحركة فنية سريعة لا يُتقنها إلا المدخنون، فأشعلها من كبريت، على وجهه رُسمت ثلاث نجوم صفراء اللون، كان يقذفه في الهواء، ثم يُمسكه بيده قبل السقوط، وقدمها لجمال، فاعتذر عن قبولها، وفي قلبه إنكار لما يراه، ولكنه لم يتمكن من التفوه به، بينما راح داود ينفث

الدخان من فمه بشراهةٍ قبل تناول الفطور، ويُحدق في تجاويف الهواء التي حلقت في سماء الغرفة من دُخان سيجارته المتطاير، بخطوط ملتوية ومتوازية، كأنها أفعى مفترسة .. وهو يُطيل النظر في وجه جمال، الذي ذكّره بملامح وجه خالته (الجوهرة) الذكوري، ثمّ قال له:

- سنذهب عصر هذا اليوم مع سامي لسوق (حراج بن قاسم) .. هو يذهب إليه يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع .. يُتاجر في التراثيات .. يبيع ويشتري فيها، هل ترغب في الذهاب معنا؟

- وماذا ستفعل هناك أنت يا أخي العزيز؟

- أبحث عن كتب مستعملة ونادرة في السوق، وعن مذكرات جامعية، وعادة ما تكون رخيصة في سعرها، أقرأها ثمّ أعيد بيعها مرة أخرى في سوق (البطحاء)، بفرشها على الرصيف يوم الجمعة، من بعد صلاة العصر مباشرة وحتى الساعة العاشرة مساءً، كحال بعض أصحابي من الطلاب، الذين يبيعون الساعات والعطور والمسجلات والنظارات الشمسية وأشياء أخرى في رصيف هذا السوق الشعبي نفسه، وعلى فكرة - يا جمال - سنذهب في الليل لشارع (العصارات)؛ لنشاهد فيلمًا سينمائيًّا جديدًا في نادي النصر، أو في نادي الهلال.

- ماذا قلت؟! هل في الرياض يُوجد سينمات؟

- نعم يا ابن الجوهرة، فيها سينمات الأندية الرياضية فقط، ويُعتبر نوعًا من أنشطتها الثقافية.

معظم سكان الرياض ومن يتردد على هذه المدينة ويعرفها جيدًا، هم أشدُّ الناس معرفة وحبًّا بسوق (حراج بن قاسم) التُراثي، الذي يقع في شارع (الريس)، جنوب شارع (سبالة)، وتعود تسميته للرجل الذي أنشأه، والحراج يحوي كل ما هو (سكراب) و(خردوات) من بضاعة مستعملة وجديدة، فمنها التالف الذي ليس به نفع، ومنها القابل للصيانة البسيطة، ويمكن إعادة تشغيله من جديد، وإعادة نبض الحياة إليه مرة أخرى.

سوق تتلاحم فيه أقدام وأكتاف البائعين والمشترين من مختلف الجنسيات .. متباينون في الرغبات والأهواء والهوايات .. كل منهم يبحث عن هدفه المنشود في هذا السوق المكتظ بالأنفاس .. أصوات الناس في هذا السوق تتشابك فيما بينها، لدرجة أنك لا تستطيع أن تُميّز ما تسمع من صوت إلا بوقوفك قربهم .. تحتار طبلة الإذن بين الأصوات.

تختنق في مداخله ومخارجه حركة السيارات الخاصة والعامة، التي تنقل إليه الزبائن والبضائع المحملة (بالوانيتات)، فتتدهور فيه حركة المرور، وتصل لدرجة الفوضى في نظام السير، وتتداخل السيارات فيما

بينها، وتُغلق مخارجه، فيكون فيه حق الأولوية لمن يملك الجرأة في القيادة، رغم بعض الاجتهادات الفردية غير الرسمية لمُتبرعين؛ من أجل تنظيم حركة المرور، وتسمع ضجة أجهزة تنبيه السيارات المتنوعة التي تملأ المكان عزفًا في نباحها؛ لتحث الآخرين على مواصلة السير وعدم الوقوف، فتختلط مع أصوات ضجة المتبضعين والدلالين والسماسرة المشحونة بالحركة والنشاط، مع ارتفاع درجة حرارة محركات السيارات الساخنة، التي تنفث على من في السوق بسمومها؛ مما يكسر هدوء رحلة الشمس نحو مغربها وسكونه.

ولا تكاد تجد فيه موقفًا قريبًا من مركز السوق إن لم تأتِ إليه مبكرًا.

سوقٌ يزدحم بباعة الأرصفة المنتشرين عشوائيًّا بلا نظام، وأغلبهم من النساء المتدثرات بأنصاف العباءات في جزئهم الأعلى، والبراقع المخنوقة، والفساتين ذات الألوان الفاقعة، وأطفالهن يتجولون في كل مكان بالسوق، يعبثون في كل متحركة وساكنة .. افترشوا الأرض بمجموعة من الكراتين .. نشروا فوقها معروضاتهم البسيطة.

كان الطقس يوم ذهابهم مُتْرَبًا، حين كانت الشمس على غير عادتها، وقد اكتفت بالانزواء خجلًا أمام العواصف الترابية الشرسة، التي لا تهدأ هجماتها المتواصلة على مدينة الرياض بصورة خاصة، وعلى منطقة

نجد بصورة عامة؛ فقد هبت عاصفة ترابية منذ الصباح الباكر، فأحالت السماء إلى خيمة صفراء، لا ترى فيها غير غبار كثيف يحجب الرؤية في بعض الأحيان.

سوق (ابن قاسم) مكان معروف لدى الكثير من الناس على أنه مرتع للرزق والمكسب الحلال .. عادة يذهب (داود) مع (سامي) - رفيق دربه في الجامعة، وشريكه في العزبة - لهذا السوق كل يوم خميس، ولهما ذكريات مشتركة كثيرة فيه، ونادرًا ما يذهب معهم رفيقهم الثالث في العزبة (ناصر)، كل منهما له طموحه وهدفه من وجوده بالسوق، فرفيقه سامي مستأجر فتحة لدكان صغير، في ممر ضيق، يبيع فيه التُراثيات، يقع في أقصى جنوب سوق (وشيجر) في (الديرة)، مقابل ساحة سوق (مجيبرة) لبيع الخضار والفواكه من جهة الشرق؛ ولهذا فإنه يبحث عن تُراثيات قديمة، مثل: الراديوات والهواتف والساعات المستعملة، والأسلحة القديمة بكافة أنواعها، من بنادق وخناجر وسيوف .. وهلم جرا من تلك التُراثيات الكثيرة، التي يعشقها - بجنون - أبناء الغرب وأحفادهم، وبعض من أبناء العرب ممن ساقهم حب التقليد - في كل صغيرة وكبيرة - لأذواق وهوايات الغرب، والكثير منها عادة ما تكون غير صالحةً للاستعمال، أكلها الصدأ وعفا عليها الزمن، فجائز بيعها في السوق، وليس فيها من المحاذير الأمنية.

وأكثر زبائن سامي من الجاليات الغربية المقيمة في المملكة، وساعده في عمله حديثه معهم باللغة الإنكليزية التي يُجيدها بطلاقة.

كلاهما يدرسان في جامعة الرياض، فداود يدرس في كلية التجارة مع زميله (ناصر)، الواقعة في منطقة (عليشة) في الجهة الغربية من مدينة الرياض، أما زميله سامي فيدرس لغات في كلية التربية الواقعة في منطقة (الناصرية).

(9)

بعد وجبة غداء فاخرة بالعزبة من صنع داود، أنست جمال طبخات أمه (الجوهرة) التي تعود عليها في مدينته الصغيرة، يتوجه الثلاثة بعد صلاة العصر مباشرة لسوق (حراج بن قاسم)،كل منهما يبحث عن رغباته الخاصة، وجمال ليس له هدف غير مرافقتهما، ينتظران قدوم (الوانيتات) المحملة بالبضائع، التي تُعرض للبيع بمزاد الجملة بداية، (الجَمَل بما حَمَل)، يدخل باحة السوق (وانيت داتسون) محملًا بالبضاعة المتنوعة، يبدأ الدلال بفتح الباب على ما في صندوق الوانيت، بكم نقول بما في هذا الوانيت من بضاعة؟ تتم المزايدة بين المتجمهرين حول الوانيت من شريطيّة مدسوسين وزبائن: 500 ريال، 550 ريال، 700 ريال، ثمّ تستقر البيعة على 3000 ريال على أحد سماسرة السوق، فيبدأ

المشتري بإفراغ ما في حوض (الوانيت) من بضائع محملة، ووضعها فوق أقرب رصيف من الوانيت؛ لإخراج (الوانيت) من زحمة السوق.

وينشغل صاحب البضاعة الجديد بفرز بضاعته وتجزئتها لمجاميع صغيرة، حسب أصنافها: أثاث، كهربائيات، أدوات، معدات، تُراثيات ... إلى آخره. يُشاهد داود من ضمن هذه الأصناف كرتون كُتب من الحجم الكبير، فيعرف أن هذه بضاعته التي يبحث عنها بشغف، وهي ضالته المنشودة في السوق، فيبدأ الدلال بالمزاد على تلك الأصناف، صنفًا صنفًا، فيساهم (شريطيّة) السوق في رفع أسعار البضائع المُحرّج عليها، بينهم إشارات خاصة في أوقات الانسحاب من المزايدة، ويرفع الدلال صوته بالمزاد على كرتون الكتب، وبكم أقول العلوم الطيّبة؟ وبكم أقول هذه المعارف النافعة؟ وداود منشغل في تقليب الكتب؛ لمعرفة محتويات كنوز الكرتون، يقوم بنبشها كتابًا كتابًا؛ ليكتشف محتويات الكرتون جيدًا .. كتب في الأدب العربي والفرنسي والإنكليزي .. مجموعة من الروايات العربية .. كتب في الفكر العالمي والعربي .. كتب في الثقافة العامة والسياسة، فيتنفس داود الصعداء، ويتنهد بصعوبة، متذمرًا من هذا الواقع السيئ بقوله: (رحم الله صاحب هذه المكتبة الغنية بالمعارف) .. لقد كان يملك كنزًا عظيمًا، وهذا الكرتون وحده قيمته لا تقل عن خمسة آلاف ريال .. غير معقول!!

فيستمر (الدلال) في المزاد على كرتون الكتب بين جمهور الواقفين في السوق، فيتحمس وينادي بأعلى صوته؛ لرفع حماس من له رغبة في الشراء: الحراج على روح الفقيد (صاحب المكتبة)، بكم نقول هذا الكرتون؟ هناك من يقول: 20، 30، 60، ثمّ يُفاجأ داود برجل أمامه، حسن المظهر والهندام، متوسط الطول، وسيم الشكل، على الرغم من بدانته الزائدة عن الحد المرغوب، ظنه في منتصف الأربعينيات من عمره .. كان الشيب قد بدأ توًّا بغزو أجزاء شعر شنبه ولحيته الخفيفة، يقفز بسعر المزاد لـ 100 ريال، فيُحدث داود نفسه، فيا ترى من يكون هذا الرجل الغريب على السوق؟ فيضطر داود لرفع السعر لـ 110 ريالات، فيقفز الرجل الغريب بالسعر لـ 200 ريال .. أخرج داود محفظة نقوده من جيبه الأيسر؛ ليتفقد كم يملك فيها من رصيد بالضبط يؤهله للمزايدة على الكرتون، وأن لا يتورط في التزام غير قادر على الوفاء به، فلم يجد فيها أكثر من 300 ريال، فقال 210 ريالات، فقفز الرجل بالسعر لمبلغ 300 ريال، فصمت داود كمن يستجمع أفكاره، ودقق النظر في وجه الرجل الغريب، ونظر إليه من زاوية عينيه عدة مرات، عاقدًا حاجبيه باشمئزاز، فلم يُعر هذا الرجل الغريب لنظرات داود أية اهتمام، فواصل مزاده ودفع مبلغًا وقدره 600 ريال، قيمة كرتون الكتب .. سلم المبلغ للدلال، وأومأ برأسه لداود، مرحبًا به، فسأله:

- من أين أنت يا بُني؟

فلم يرد عليه (داود)، وأغلق فمه العريض بقوة، وكأنه مصمم على عدم فتحه، فكرر سؤاله مرة ثانية وثالثة، فرد عليه داود بعد أن عقد ما بين حاجبيه، وكان يُغالب غضبًا مخنوقًا ينتفض في داخله، لم ينجح في كبحه والسيطرة على مشاعره الثائرة:

- لماذا تسأل؟ ومن يكون حضرتك؟

- من باب حب معرفة الشباب المثقف، الذي يهتم بمثل هذه الكتب القيّمة.

- أظن هذه الأمور لا تعنيك في شيء.

- هل تعرف لمن هذه الكتب؟

- لا، ولن أهتم بمعرفة مثل هذه التفاصيل.

- يا بني، أراك مهتمًّا كثيرًا بالكتب التي ابتعتها؛ فقد رأيتك تتصفحها بعناية فائقة، وكأنك خبيرٌ في المكتبات، وسمعتك تُحدث زميلك الواقف بجوارك عن تفاصيلها بدقة، وهذا يعطيني عنك انطباع أولي بأنك قارئ جيد ومثقف واعٍ، والكُتب تُنعش اللغة والأدب، بل ترقق أحاسيسنا نحن كبشر، كلما قرأنا فيها تدفقت دماء جديدة في عروق أفكارنا ومعارفنا، فتنمو عندها عقولنا، وتلين مساحة الإنسانية المتحجرة في ذواتنا، فتعيدنا مرة أخرى بشرًا في كل قراءة لأي كتاب

مهما كان نوعه .. إنها تزرع الأمل في نفوسنا من جديد، تجعلنا نحب الحياة وما فيها من أشياء تتراقص حولنا .. إنها تُبرز لنا ما هو جميل فيها .. القراءة تسمو بأخلاقنا، وتُهذب طباعنا البشرية وتصرفاتنا اليوميّة وردود أفعالنا، وتسمو بمشاعرنا الإنسانية إلى مساحة الرُقي والإبداع، وتُدغدغ أحلامنا المتعثرة، وتجعلنا نشتاق كثيرًا للعيش في عالم أفضل، يسوده الحب والخير والتعاون والبذل والعطاء، ويكفينا فخرًا أنها تُعلمنا أن نحب بعضنا بعضًا، وأن نعشق بجدارة وامتياز، وأن لا نكره أحدًا في هذه الحياة مهما أساء لنا، أو قصّر معنا في شيء، والقراءة تقودنا لمعرفة أمثالكم من أصحاب الوجوه الطيّبة الخيّرة، من الشباب الواعي المثقف.

يا بني كل هذه الكتب التي قرأت عناوينها للكاتب الصحفي (....) رحمه الله وغفر له، كل نص كتبه رحمه الله، سواء أكان بالجريدة أو بالمجلة، حاول أن يضخ فيه حصيلة خبرته وتجاربه الأدبية والسياسية والاجتماعية، برؤية فكرية جديدة، تتلاءم مع نبض مقومات الجيل الحاضر، وفقه الواقع الذي يعيشه، بأسلوب معاصر متوازن بين الموروث العربي الإسلامي وبين الحديث الذي نهضت به الأمم الأخرى، بصياغة أدبية سهلة غير مسبوقة في جيله؛ مما أدى إلى ريادته بالكتابة، وانتعاشها في عصره، وساعد كثيرًا في استعادة حيويتها من جديد، رغم شدة الهجمة

الشرسة التي كان يتعرض لها من قبل خصومه فكريًّا وثقافيًّا؛ فمرة يُوصف بالعلمنة، ومرة أخرى يُجلد بسوط الحداثة .. أبناؤه الثلاثة - مع الأسف - عرضوا مكتبته الخاصة للبيع!! لليوم الرابع وهم ينقلون من كتبه بكراتين لهذا السوق، (أسوأ خلف لخير سلف)،كيف تُباع مكتبة الكاتب الصحفي المشهور في مثل هذا السوق؟!

يا بُني، اختر أية كتب تُريد منها، وتخيّر ما يُناسبك، ولكن حاول أن تقرأ رأيه المكتوب في هامش الصفحات رحمه الله .. من عادته عندما يقرأ كتابًا يُناقش مؤلفه في أفكاره التي طرحها فيه، وقلما تجد هذا اليوم من يفعل مثل هذا الرجل الراحل رحمه الله .. الآن تفضل وخذ ما تريد منها يا بني.

فهز داود رأسه مزدردًا لعابه بصعوبة، رافضًا هذا العرض المُغري له في بادئ الأمر، وتردد كثيرًا في قبوله، وتناول شيئًا منها، لكن إصرار مضيفه عليه جعلت يديه تمتد بنهم لتلتقط من الكرتون خمسة كتب، كان قد فحصها مسبقًا فنالت إعجابه.

فودعوا هذا الرجل الطيب، الذي عرّفهم باسمه (ثامر محمد)، بعد أن تعرّف عليهم وتعرّفوا عليه، على أمل أن يلتقوا به قريبًا في مقر النادي الأدبي بالرياض في حي (الملز).

وتلعب الصدفة أحيانًا دورًا مهمًّا في تحديد مسار الأحداث والعلاقات الإنسانية، على الرغم من أن البعض لا يؤمن بالصدفة، إلّا أنها من حقائق الحياة البشرية التي نعيشها، وهي جزء من القدر المكتوب، إن لم تكن القدر نفسه، وعلينا قبول أشياء مكتوبة لنا أو علينا.

في طريق عودتهم للعزبة، بدأ داود يتصفح الكتب الخمسة المركونة في حضنه بهمةٍ عالية، وسعادة ليس لها حدود، على هذه الهدية الغالية على نفسه، ومن بين أحشاء كتاب (بلوغ المرام)، سقط ظرف أبيض في حضنه، كحمامة سلام، تستأمنه ظرفا (المكان) و(الزمان)، يرفعه داود برفق ليقرأ الكتابة على وجهه، فيُخبر أصحابه أنها (وصية)، فيسألهم عن رأيهم فيها؟

- هل نقرأ هذه الوصية ونرى ما فيها، وبناء على ما هو مكتوب فيها نتصرف؟ (قال سامي).

- لا يا أخي العزيز، لا يجوز لنا قراءة هذه الوصية، ربما فيها أسرار خاصة، فلا يجوز لنا الاطلاع عليها، علينا العودة لسوق (حراج بن قاسم)، والبحث عن صاحب (البيك آب)، أو عن صاحبك مشتري الكُتب (ثامر محمد) الذي أهداك الكُتب؛ لأنه بالتأكيد يعرف عنوان صاحب المكتبة .. قال (جمال).

وفعلًا هذا ما تم، فعادوا أدراجهم للسوق، فلم يجدوا في السوق (ثامر)، ولا صاحب (البيك آب)، فرجعوا للعزبة، حاملين معهم ذلك الظرف الغريب، بعد أن أعادوه لمستودعه بين صفحات (بلوغ المرام)؛ على أمل أن يذهبوا في الغد للنادي الأدبي، ويسألوا عن رجل (حجازي) اسمه (ثامر محمد)، فربما يعثروا على عنوانه، ولكن خيب هذا الظن أملهم، فكل من في النادي لم يسمع بمثل هذا الاسم من قبل، فلم يبقَ لديهم من أمل غير التردد على سوق (حراج بن قاسم)؛ فربما يظهر لهم أحدهما، وبعد مرور عدة أسابيع يئس (داود) من تسليم الظرف لصاحبه، فسوّلت له نفسه قراءة ما فيه من وصية، فاختلى بنفسه منفردًا في الليل، وفتح المظروف، فوجدها عبارة عن رسالة بخط يد جميل لورثته، فحواها الطلب من الورثة بتقديم كل كُتب مكتبته الخاصة هدية للمركز الإسلامي في (نيويورك)، على أن تكون جميع مصاريف نقلها وشحنها من الرياض لمقر المركز من حساب إرثه الذي تركه لهم.

(10)

اعتاد شباب مدينة الرياض من طلاب جامعة الرياض والمعاهد الدراسية الأخرى الكثيرة بصورة عامة، المغتربون عن أهاليهم، القادمون من المدن والقرى البعيدة عن الرياض، على التجمع والتسكع في الأماكن العامة المشهورة في المدينة، وعلى رأس هذه القائمة السياحية، نجد شارع (الوزير)، ذا النبض التجاري البارز، المزدحم يوميًّا من بعد المساء حتى آخر الليل.

ثمّ سوق (البطحاء) المشهور بفروعه الكثيرة، المتخمة محلاته بكل ما يحتاجه المتسوق، والمزدحمة عادة بالمتبضعين يوميًّا، و(بسطات) الباعة المتجولين من الشباب على رصيف شارع (البطحاء)، الزاحف مع اتجاه شارع (الوزير)، جنبًا إلى جنب من جهة الجنوب إلى جهة الشمال.

وفي وسطه مجرى السيول المكشوفة عورته، والممتد لمنطقة (الدار البيضاء) في جنوب الرياض، والمقام بين ضفتيه عدة جسور، لعبور السيارات والناس على ظهورها بثقة وأمان، ثمّ شارع (الشميري) ذو الماركات العالمية المشهورة، وسوق (سويقة) الملاصق له قرب قصر (المصمك)، وكأنه جزء منه، الضيق في ممراته، والمعروف بسمعته التجارية بين النساء، المفعم برائحة العطور الفرنسية، والمزدحم من بعد صلاة العصر، ومعظم رواده من العنصر النسائي، وممنوع دخول الرجال دون مرافقة النساء كمحرم لهن، فعند مداخله يحرسه رجال (الهيئة)، ومن يدخله يشعر كأنه في وسط خلية نمل أسود، من كثرة النساء المتسربلات بالسواد، وفي مدخل شارع (الشميري) من جهة الشرق عند بوابته الشرقية، يُوجد نافذ ضيق ومغلق، فيه بابان؛ باب خشبي كبير ذو فتحتين، عبارة عن منزل عربي قديم مهجور، في داخله عدة غُرف متهالكة وآيلة للسقوط، أصبح مستودعًا مشتركًا بين صاحب محل ملابس رجالية جاهزة (حضرمي)، وصاحب محل أحذية (حجازي) من أهل المدينة المنورة، وباب آخر حديدي صغير، مركون بعد مدخل النافذ مباشرة، استأجره شاب يماني اسمه (يحيى)، جعله مقهى لخدمة زبائن السوق، يفترش في النافذ 3 طاولات حديدية مربعة الشكل، قابلة للطي عند إغلاق المقهى في الليل، وعدد من كراسي البلاستيك ذات اللون الأبيض، ويُقدم (يحيى) لزبائنه في المقهى الصغير المشروبات الساخنة

والباردة على حد سواء، ويُقدم لهم معها (السندوتشات) الخفيفة المتنوعة، ويُساعده في إدارة المقهى شاب يماني من أقاربه اسمه (إسماعيل)، يعتمر دائمًا قبعة حمراء اللون، وصاحب نكتة خفيفة وضحكة بارعة، يُجيد السجع في كلامه، ويُحرض الآخرين على اتباعه، ومن عيوبه ترويجه الخفي للفكر (الشيوعي) الماركسي في سجعه.

وتتجاوز خدماتهما حدود المقهى، فتصل لأصحاب المحلات التجارية البعيدة والقريبة المنتشرة في شارع (الشميري)، وجزء من محلات شارع (الوزير) القريبة منهما، وتصل طلباتهم إليهما عبر جهاز الهاتف.

لكن يبقى شارع العصارات - بصخبه في الليل وهدوئه في النّهار - هو القلب النابض بحيوية شباب أهل الرياض .. هو الشارع الأبرز وضوحًا وحظوظًا بالنسبة لملتقياتهم، فيُعتبر (شانزليزيه) الرياض بجدارةٍ وبدون منافسٍ، له نكهته النجدية الخاصة عند لقاء الشباب، فمظاهره تحكي لك جانبًا من ثقافة الرياض وأهلها .. هو المتنفس المشروع لطاقة الشباب في العاصمة؛ فمحلات بيع العصير الكثيرة تعج برواده من جيل الشباب، من جيل الجامعات والمعاهد العلمية، انتشرت تلك المحلات على امتداد الشارع، بدايةً من زاوية تقاطعه مع شارع (التلفزيون) حتى جنوبه الذي ينتهي بدوّار (الشميسي)، وأكثر هذه المحلات تقع في

الضفة الشرقية منه، فشارع العصارات هو المكان المناسب لالتقاء الشباب فيه، قادمين من أحياء الرياض القريبة والبعيدة، يتبادلون الأحاديث والأخبار فيما بينهم، ويُعتبر مكانًا مهمًّا وبارزًا لاستعراض كل ما هو جديد من الموضة الشبابية في العاصمة، من (سيّارات) حديثة، ومن موضة ملابس جديدة، وتُشاهد فيه آخر الصيحات الشبابية، في قص شعر الرأس وتهذيب الذقن. و(البوفيات) في شارع (العصارات) تُقدم لزبائنها العصير الطازج بأنواعه، والوجبات الخفيفة الساخنة.

ناصر وأصحابه عادة يلتقون مع أصدقائهم في بوفيه (أبولو) في نهاية الأسبوع، وهم يعتبرونها أفضل بوفيه في شارع العصارات بصورة خاصة، وفي الرياض بصورة عامة، وبين محلات (العصير) انتشرت بعض صالونات الحلاقة، وبعض الدكاكين الصغيرة التي تبيع الملابس الرجالية الجاهزة وجميع إكسسوارات الشباب، وأشهر هؤلاء الحلاقين رجل اسمه (عبد العالي)، ومحلات العصير هذه قريبة جدًّا من سكن الطلاب الجامعي، سواء أكان المبنى الذي يقع في نهاية شارع التلفزيون من جهة الغرب، عند تقاطعه مع شارع العصارات، أو المبنى الآخر الواقع في منتصف شارع الوشم، من جهته الشمالية.

في بعض الأحيان يحلو لناصر وأعضاء العزبة مشاهدة عروض الأفلام السينمائية، ومتابعة الجديد منها أولًا بأول في صالات الأندية

الرياضية، سواء أكانت تلك الأفلام عربية أو أجنبية، وعادة يكون مكان عرض الأفلام في صالات مفتوحة؛ لتخفيف كمية الدخان المتصاعد من قبل المدخنين، وفي الصالة يُتابعون أحداث الفيلم من فوق مدرجات أسمنتية انتصبت أمام جدار مصبوغ باللون الأبيض، وكأنك جالس في مدرجات إستاد ملعب كرة قدم، ويحلو لبعض سكان شقق العمائر المحيطة بساحة النادي متابعة الفيلم المعروض على الجدار دون دفع رسوم تكاليف الدخول، التي لا تزيد قيمة التذكرة عن الخمسة ريالات فقط، رغم عدم سماعهم لصوت الفيلم، وأشهر الدور التي تعرض الأفلام السينمائية هما نادي الهلال الرياضي، الواقع مقره في الجهة الغربية لشارع (العصارات)، ونادي النصر الرياضي الواقع مقره في الجهة الجنوبية لشارع (الخزان)، قبل تقاطعه مع شارع (العصارات).

ويستأجر في بعض الأحيان أعضاء العزبة شريط فيلم (بكرة) مع جهاز العرض من المحلات الكثيرة، الواقعة في منطقة (المربع) شمال حديقة (الفوطة)، مقابل إيداع مبلغ معيّن من المال، كضمان نقدي لإعادة الشريط وجهاز العرض عند الانتهاء منه.

دخل ناصر مع بعض أعضاء العزبة بوفيه (أبولو)، واستغربوا كثيرًا من وجود جارهم (تركي)، الجالس مع ابن عمه (عبد الله)، يتحدثان مع

بعض، ويشربان العصير، ويقضم كل منهما بقايا قطعة (سندوتش)، فتوجه ناصر فور دخوله للسلام عليهما، وعرَّف بنفسه عليهما، وقرأ في وجه تركي رسالة سروره وشكره غير المعلن من تصرفه هذا الذي قام به .. لقد شعر تركي باحترامه له، فطلب ناصر منهما الانضمام إليهم، فاعتذرا له، واعتبر ناصر هذا أول لقاء تعارف جاد بينه وبين جارهم تركي، فسارع ناصر بدفع حسابهما لعامل (البوفيه) دون إخبارهما، وعندما علم تركي بما فعله ناصر توجه لركنهم المعتاد الذي يجلسون فيه دائمًا، وصافحهم جميعًا، وعاتب ناصرًا على فعلته بدفع حسابهما، وفي الوقت نفسه شكره على كَرمه وحُسن ضيافته، ومنذ ذلك اللقاء توطدت العلاقة بين الاثنين، فطلب ناصر من تركي مساعدتهم، بخصوص التأثير على والده - حفظه الله - لقبول جمال ضيفًا عندهم في العزبة لمدة قصيرة، ريثما يجدوا له سكنًا مناسبًا.

وهكذا تلتقي الثقافات متى ما أتيحت لها أجواء حرية اللقاء في الأماكن العامة والخاصة، بعيدًا عن تسلط الموروثات الاجتماعية القديمة، فبدأت رحلة الزيارات الكثيرة من قِبل تركي وابن عمه (عبد الله) للعزبة التي تجاورهم، فأصبحت محطة استراحة ونواديًا لهما؛ ففيها المتعة والترويح عن النفس، فكانا يقضيان ساعات طويلة مع شلة العزبة، يُشاركونهم صخبهم ومزاحهم وهدوءهم وسكينتهم وطبخاتهم، بعيدًا جدًّا عن هموم الحياة ومشاكلها، ويشربان فيها الشاي، ويقضيان

فيها طرفًا من الليل والنّهار، يستمتعان مع أعضاء العزبة في جو أخوي، يسوده الود والاحترام والتقدير، بين لعب الورق من (بلوت) و (كن كان)، وضرب لخشب (الكيرم)، وسماع صوت فرقعة قطع (الدومنو).

هذا التقارب الأخوي الذي حصل بين كل من تركي وأعضاء العزبة لم يُرضِ (إبراهيم) والد تركي، الذي حاول - بشتى الوسائل - أن يُقنع ابنه بأن هؤلاء غرباء، ليسوا من قريتهم، وليسوا من معارفهم، ولا يعرفونهم جيدًا، والمفروض عدم الاختلاط مع أمثالهم؛ فلهم عاداتهم الموروثة، وتقاليدهم الخاصة، وعليه ترك السهر معهم لآخر الليل، ولديه أبناء عمومته وأقاربه الكثيرون المنتشرون في أحياء الرياض.. في حلة القصمان وفي حي الشفا وفي حي السويدي، وقد هيأ أبو تركي لابنه غرفة خاصة فوق السطح، وضع فيها له كل المنافع الترفيهية الخاصة بالشباب.

(11)

قَدِم (قايد) صاحب بقالة (ياسين) من سفرته لليمن، بعد أن ترك البقالة في عهدة ابن عمه (ناجي) الأخ الأصغر لقاسم، صاحب مخبز (أبو حديد) خلال فترة سفرته .. عاد محملًا بالهدايا السخية لأصحابه ومعارفه من أهاليهم في اليمن؛ من سمن وعسل وقهوة وسمسم .. وغيرها، ومعه كذلك حزمة من الرسائل الكثيرة، ينبغي عليه توصيلها لأصحابها في أقرب وقت ممكن، مرسلة من أهاليهم في اليمن، تحمل أخبارهم، وتبث أشواقهم، ولوعة فراقهم لأبنائهم المغتربين في السعودية.

باشر قايد عمله في (بقالته) من جديد بحيوية ونشاط، بعد انقضاء إجازته، التي استمتع فيها بقريته الجبلية، التي تنعم بالأجواء الباردة في أيام الصيف، بين أهله وأحبابه وأصحابه، والتي امتدت لثلاثة شهور، كأول إجازة له بعد غياب امتد لثلاث سنوات .. توج (قايد) إجازته قبل

مجيئه بأسبوع بعقد قرانه بابنة عمه (سعاد)، التي كانت تتواصل مع ابن عمها الآخر (حسن)، صاحب مغسلة (البراحة) دون علمه، لتترك حسن في حيرةٍ من أمره، كاتمًا غضبه؛ خشية انفلات دموعه أمام أصحابه .. أخذ يتخبط في اتخاذ قراراته كدجاجة مذبوحة توًّا بشفرة حلاقة جديدة، لا تدري ماذا تفعل بما حدث لها.

يتردد حسن بين بيع المغسلة والعودة لليمن؛ من أجل تصفية حسابه مع من وعده بالزواج من (سعاد)، فعقد الآمال الكثيرة على هذا الوعد، وبين التفكير في الأخذ بثأره من ابن عمه (قايد) هنا أولًا، الذي خطف منه حبيبته سعاد، فأصبح لا يطيق رؤية وجهه، ولا يود حتى سماع نبرة صوته، ويُحاول كثيرًا تجنب الجلوس معه في مجلس واحد يجمعهما، طالما أنه يسمع عِواء وحش كاسر ساكن في داخله، يدفعه بإصرار للانتقام منه في أقرب فرصة ممكنة، كلما شاهده ضاحكًا أو مازحًا صاح هذا الوحش في سمعه أنه (يسلبك الحياة)، فلماذا لا تفعل معه الشيء نفسه؟! فضاقت في قلبه مساحة تلك الغرفة الصغيرة التي تعوّد أن ينام فيها مع أبناء عمومته، كما كان يفعل سابقًا، وبدأ يبحث عن مكان آخر يؤويه، دون إثارة ضجة مع من حوله، بعد أن أصبحت عزبتهم في (منفوحة) صالة أفراح لاستقبال اليمانيين، الذين يأتون من حواري الرياض المختلفة؛ لتهنئة ابن عمه (قايد) على عقد قرانه بسعاد.

تأكد حسن من أن بعض الأمنيات العالقة في رحم الحياة لن يبقَ من نبضها غير السراب والخراب في داخل النفوس، وعلم أنها كانت أحلام يقظة تستفز مشاعره الإنسانية الهادئة؛ لذا عليه - من الآن - أن يكبت تلك المشاعر المجروحة، وأن لا يلتفت لصرخاتها وعويلها، وتنتظره مهمة عظيمة في قادم الأيام، فحضور صور وعود (سعاد) الورقية أصبحت منطقة موبوءة بالهزيمة والخيانة، صورًا غير مرغوب في حضورها حاليًا، ومن لا يعتمد على الإقدام والشجاعة، يُعتبر تاجرًا بلا بضاعة.

شعر ناصر بعظمة مأساة صديقه حسن العاطفية؛ فهو الوحيد الذي يعلم عن علاقة حبه العظيم لسعاد؛ لأنه كاتب رسائله الغرامية، وأمين مستودع أسراره العاطفية، فناصر من صنع له سر خلطة حُبه وهيامه في رسائله البريدية الكثيرة، بعد أن بث فيها حرارة أشجانه، ولوعة غرامه، وروعة عواطفه تجاهها؛ لذا كان ناصر أول المتعاطفين معه، وتألم لفاجعة مأساته المفاجئة التي سمع بها مؤخرًا، وشعر ببشاعة الظلم الاجتماعي الذي وقع عليه، في اقتلاع ذلك البرعم النامي في حياته، فحاول أن يواسيه ببعض الكلمات؛ لعلها تهوّن عليه من مصيبته التي تعرض لها، فنسب ناصر كل ما حصل له إلى شيء من (القسمة والنصيب)، وأن الإنسان لن يأخذ إلَّا ما قسم الله له؛ من (زوجة) ومن مال وولد، وليس

له إلّا ما كُتب له في هذه الحياة الدنيا، وأن سعاد حتمًا ليست من نصيبه، وقد يُبعد الله عن العبد من يحب؛ ليشغله بما يحب، ففي أقدار الله حكمة ورحمة وألطاف خفية، تستنير بها الحياة (والله يعلمُ وأنتم لا تعلمون).

ثمّ خرج منه، وعرج على قايد في البقالة؛ ليُبارك له هذه الخطبة من باب المجاملة؛ فقايد صاحب المعروف والفضل عليهم؛ إذ هو من يمدهم بتسهيلات شرائية من البقالة حتى نهاية الشهر، فبارك له، ولو أن في قلبه شيئًا من اللوم والعتب على فعلته هذه، إن كان يعلم ما بين حسن وسعاد من علاقة، أو لم يكن يعلم بذلك.

في فجر يوم لليلة ممطرة، بدت بعض الشوارع كبرك ماء، خرج كثير من رجال وشباب حارة (الصالحية) بلا شعور من منازلهم مذعورين، بعضهم في ثياب النوم، وآخرون بملابسهم الداخلية فقط، من (فنيلة) و(سروال طويل)، ساترين أنفسهم في (فروة) أو في (بشت) عن شدة البرد، مندفعين نحو مكان الحريق، الذي يُشاهد منه الضوء وسُحب الدخان تتصاعدان معًا بكثافة .. تجمهروا حول مكان الحريق الضخم، الذي أحكم قبضته على ما في بقالة (قايد) من بضاعة، ويصارع - بضراوة - لإكمال مهمته في التهام وجبته، ورائحة احتراق المواد الغذائية تنتشر في المكان .. حاول بعضهم إنقاذ ما يمكن إنقاذه .. صوت

صفارات سيارات الإطفاء والإسعاف التي ملأت أرجاء المكان ضجة، فأفزعت حارة الصالحية بأكملها، وأيقظتهم من هدوء سباتهم .. ضوء ضخم أضاء ما حول دوّار الصالحية، وجعل المنطقة كأنها في عز النّهار .. حدث ذلك قبل حلول صلاة الفجر بساعة، ورجال الدفاع المدني بملابسهم الصفراء الثقيلة وقبعاتهم الحديدية الواقية يُحاصرون النار من كل الجهات ببسالة؛ كي لا تتسرب للمناطق السكنية المجاورة لمكان الحريق، وقد نجحوا فعلًا في محاصرتها، وإخمادها بالكامل .. وقبل تباشير الصباح حضر كل من (قايد) و(حسن) و(قاسم) صاحب المخبز وأخيه (ناجي) للمكان، بينما كان أفراد الدفاع المدني يُلملمون خراطيم المياه الكثيرة، ويرفعون السلالم الحديدية، وباقي معداتهم المتفرقة في مكان الحادث، ويضعونها في بطون سيّاراتهم الصفراء الضخمة، ويطلب مسئول الدفاع المدني من (قايد) - بعد أن عرف أنه صاحب البقالة - مراجعة إدارة الدفاع المدني؛ للوقوف على سبب الحادث، واستلام التقرير الخاص في البلدية؛ من أجل إعادة فتحها من جديد - إذا رغب.

ويصف شهود عيان الحادث لأحد عناصر الدفاع المدني، وهو من رجال الحارة (لم يفصح للدفاع المدني عن اسمه وموقع منزله، ولم يسألوه عن ذلك) .. كان متواجدًا من ضمن المتجمهرين حول مكان الحريق، حسب ما شاهده قبل ساعات من وقوع الحريق، بقوله:

عندما كنتُ عائدًا لمنزلنا قبل أذان الفجر بسيارتي، شاهدتُ رجلًا يعتمر شماغًا داخل البقالة، فاستغربت من وجوده في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل .. لم أتمكن من معرفة ملامحه بدقة؛ بسبب النوم الذي يُمارس سطوته على وعيي بعنف، وساعات السهر الطويلة التي أدت إلى عدم تركيزي في تلك اللحظة، من أجل معرفته وتشخيصه، رغم أني فكرتُ في حينها، أن أقف لأشتري علبة سجائر منه، حيث لم يتبقَ في العلبة سوى سيجارتين، لكن التكاسل أطاح بمشروع فكرتي، ولتقودني سيارتي للمنزل دون تحقيق تلك الرغبة، وبعد ساعة تقريبًا من مروري، سمعتُ صوت صفارات سيّارات الدفاع المدني التي أفزعت كل من في الحارة، وجميع الحواري التي مرت في طريقها كعادتهم.

(12)

يذهب (قايد) - بخطى متثاقلة مترددة - لمكتب إدارة الدفاع المدني، الواقع في الجهة الشمالية من شارع (الوشم)، بناءً على طلبهم، وليس في حساباته أمل في العثور على السبب الحقيقي لهذا الحريق، أو معرفة الشخص المتسبب فيه، غير ضرورة حصوله على الأوراق الرسمية الروتينية اللازمة؛ من أجل الترتيب لإعادة فتح بقالته من جديد .. لم يفكر (قايد) مطلقًا بأنه سوف يجد سببًا للحريق الذي التهم كل ما في بقالته، وكان كل ما يدور في خلده أنهم سيقولون له كالعادة في كل حريق، كما سمعه من أصحابه: أن سبب الحريق التماس كهربائي؛ نتيجة الإهمال وسوء الاستخدام، وعليه ضرورة إصلاحه، مع مراعاة استخدامه التوصيلات الأصلية التي تتحمل قوة الأحمال الكهربائية، وأن يتجنب

الصناعات الصينية الرديئة في الكهرباء، ولكنه فُوجئ بفتح هذا التحقيق الجاد من مدير مركز الدفاع المدني:

- هل تشك في أحد يا قايد؟

- لا، ليس عندي شك في أحد.

- هل حدث بينك وبين أحد الزبائن أو من الأصدقاء مشادة كلامية، وهددك بعملٍ ما؟

- لا .. لحظة لو سمحت، نعم قبل أسبوع، حضر أحد سكان الحي، أظن اسمه (جمال)، نعم (جمال)، يسكن في عزبة بحارة الصالحية قريبة جدًّا من البقالة .. هو الوحيد من بين أعضاء العزبة الأربعة الذي لا أعرفه جيدًا، انضم حديثًا إليهم .. سمعتُ من أصدقائه أنه يدرس في المعهد العلمي (الدِّيني)، يَؤم المصلين في صلاتي التراويح والقيام في ليالي رمضان في مسجد (الروّاف)، الواقع في الحي نفسه .. طلب مني عدم بيع المحرم (الدخان) حسب زعمه في البقالة، وأكثر علي من نصائحه الدِّينية، وأسمعني جملة من نصوص تحريم تدخين السجائر وبيعه، من الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكم تمنيت أن يسكت قبل أن أفقد السيطرة على أعصابي وأرد عليه بكلام لا يتناسب مع مقام الأدلة الشرعية الصحيحة، وهددني ببعض الأمور المؤلمة لي، منها تأليب سكان

الحارة علي، وحثهم على مقاطعتي؛ بسبب بيعي الدخان بالخفية، وإبلاغ صاحب العمارة الذي لا يعلم عن بيعنا (الدُّخان)، الذي أخبئه في مستودع سري عنه، ولو علم بمثل هذا الأمر، فإنه - لا محالة - سيطردني من عمارته، حسب بند عقد الإيجار الذي وقعته معه؛ لذا تركته يثرثر بما شاء، منصتًا له؛ ليقول ما يريد من كلام، ولم أرد عليه أو أقاطع حديثه؛ كي لا يتطور الخلاف بيننا ويصل لمرحلة لا تُحمد عقباها، ويصل لطريق مسدود لا عودة فيه غير المعركة بالأيدي، وبالوقت نفسه، إني خشيت أن يكون جادًّا في حماسه واندفاعه، ويُخبر صاحب العمارة الذي يتربص بمثل هذه الفرصة السانحة.

- يا قايد، تبين لنا من المعاينة الميدانية أن الحريق كان مُتَعمّدًا؛ من أثر رائحة الكيروسين في البقالة، هل تبيع كيروسين؟

- لا .. وليس في البقالة كيروسين.

- الذي حرق البقالة دخل من الباب، ولم يكسر القفل أو الزجاج، هل نسيت قَفْله ليلة البارحة؟

- لا أذكر بالضبط، ولكني بالعادة أقَفْله، وقبل أن أغادر المكان عادة أتأكد من إغلاقه مرة ومرتين، وإن وسوس لي الشيطان في ذلك اليوم أتأكد ثلاث مرات أو أكثر من إغلاقه.

- والذي دخل البقالة قام بإغلاقها، ولم يتركها مفتوحة، بعد أن أشعل النار من عمق داخلها بداية، كما بينت لك سابقًا، لقد استخدم سائل (الكيروسين)، وقبل أن يُشعل النار فيها، فتح درج المكتب، وسرق النقود المتروكة فيه، التي كانت أكثر من (ثلاثة آلاف) - كما تدعي أنت - ثمّ أخرج دفتر الحسابات الخاص في ديون الزبائن من الدرج الآخر، فمزقه ونثر أوراقه داخل البقالة، لتلتهمها النار فيما بعد .. أظنه فعل هذا كي يُبعد الشبهة عنه، وينسبها لأحد المدينين، وهذا الدفتر هو الذي يحفظ حقوقك التي في ذمة زبائنك، كما تعلم بعد حفظ الله لها، فهل لديك بعض الزبائن مديونيته كبيرة؟ ولم يُسدد دينه المُتراكم منذ فترة طويلة؟ أو من لم يُسدد ويرفض التسديد؟

نعم .. لدي أكثر من شخص سعودي في الحارة لم يُسدد حسابه منذ فترة طويلة، رغم مطالبتي الملحة لهم على ضرورة التسديد، حتى أن بعضهم هجر الشراء من البقالة.

أذهب لمنازلهم، وأطرق عليهم الأبواب؛ لمطالبتهم بسداد الدين الذي في ذمتهم، فيُقدمون لي أعذارًا واهية وغير مقنعة، منها أن حساباتي غير دقيقة، وبعضهم اتهمني بالتلاعب والتزوير في الأرقام، ومنهم من أنكر ما في ذمته جملة وتفصيلًا، وقال: لقد سددتُ لك الحساب كاملًا من

زمن بعيد، وانقطعت عن الشراء منك منذ فترة طويلة، ولكنك نسيت، وهذه ليست مشكلتي، وهددني بعدم المجيء لمنزله مرة أخرى.

بعض أصحابي أشاروا علي بمقاضاتهم عن طريق الإمارة، بتقديم شكوى عليهم، وليس لدي دليل قانوني غير أرقام الحساب التي في الدفتر، والقسم بالله العظيم في قاعة المحكمة أمام القاضي، وأمثال بعضهم - حسب معرفتي بهم - مستعد للحلف أمام قضاة العالم على الكذب ألف مرة.

وعلى فكرة، أنا أسجل رصيد حسابات المدينين في دفتر تلفون صغير، أحفظه دائمًا داخل محفظتي، قيّدتُ في أعلى صفحاته أسماء الزبائن المطلوبين، وفي أسفل السطر الأول، أدون ما عليهم من أرصدة مدورة حديثة، خصصتُ لكل زبون صفحة خاصة.

- حسنًا، وخيرًا فعلت أن احتفظت بنسخة أخرى لحساباتك، من باب الاحتياط لمثل هذا الأمر الذي وقع بالأمس، على الأقل تحفظ حقوقك التي في ذمة الناس؛ لذا فإني سأكتب في هذا الحادث تقريرًا مفصلًا عن رؤيتنا عن سبب هذا الحريق وملابساته؛ لتذهب به لمركز الشرطة، وتتقدم بشكوى ضد هذا المجهول الذي تسبب في حرق (البقالة).

(13)

تم استدعاء جمال لمركز الشرطة؛ للتحقيق معه، عن طريق عمدة (حارة الصالحية) كما جرت العادة .. هو الذي يعرف أسماء سكان الحارة التي يعيش فيها، ويعرف أماكن منازلهم اسمًا اسمًا، وهذا جزء من مسؤوليته الكبيرة في الحارة، ولأول مرة في حياته يدخل جمال مركز شرطة للتحقيق معه في قضية .. كان خائفًا جدًّا من هذا الاستدعاء، الذي لا يعلم عن خفاياه شيئًا.

وعند حضوره في مكتب مدير الشرطة، طلب منه النقيب الهوية الشخصية - بداية - للتأكد من مطابقة اسمه قبل بداية التحقيق معه، كما جرت عليه العادة في التحقيقات، فقدم له هوية المعهد العلمي، التي يعتبرها رسميّة، فعادة يستلم راتبه الشهري بها من إدارة المعهد، فاستغرب النقيب من اسمه الذي في البطاقة، حينما كانت يده اليمنى

مشغولةً بالبحث عن قلم (جاف) بين مخابئ جيوبه وأدراج مكتبه؛ ليكتب به محضر التحقيق، فنظر في صورة البطاقة التي يحملها بيده اليسرى، ثمّ أعاد النظر بعينيه الكبيرتين الغارقتين في وسط كثافة أهدابهما لوجه جمال من جديد؛ ليتأكد من أنه فعلًا صاحب البطاقة التي يحملها، الجالس أمامه على الكرسي، وليس شخصًا غيره، فسأله:

- أليس اسمك جمالًا؟

- نعم يا أخي العزيز .. كان اسمي جمالًا في العصر القومي، فعمدت - بفضل الله سبحانه - لاستبداله إلى (عبد الرحمن) قبل عدة شهور، في دائرة الأحوال المدنية بشارع (الوشم)، لكن الناس من قريب ومن بعيد مصرون على استفزاز مشاعري المخنوقة، ومناداتي بذلك الاسم القديم، رغم أني دائمًا أذكرهم باسمي الجديد .. إنهم يرفضون هذا التغيير، ويُصرون على الاسم القديم - مع الأسف - في أثناء حضوري أو في غيابي، سبحان الله لقد جُبل الإنسان على استنقاص غيره من البشر، ويُصر على إشهار سلاح العداء والأذى للآخرين دون منفعة له.

لم أحب اسم (جمال) مطلقًا، منذ أن وعيت بأن اسمي جمال، وعندما كبرت وفقهتُ الحياة، كرهتُ أن يلتصق اسم (عرّاب) القومية العربية بشخصيتي الإسلامية .. هذا الزعيم التافه الذي نحر صف الوحدة

الإسلامية .. هذا السخيف الذي يُعتبر صديقًا للفكر الشيوعي والفكر الاشتراكي.

فوالدي - رحمه الله وغفر له - أسماني (جمالًا)؛ تيمّنًا بقائد الوحدة العربية (جمال عبد الناصر) كما يزعم .. كان يحبه ويعشقه منذ أيام طغيان فكره الناصري القومي اللعين في البلاد العربية .. كان لهذا الزعيم كاريزما مميّزة في نفوس عشاقه من الملايين العرب الضالين التائهين، الذين تطيّروا فرحًا بقدومه وبفكره، واعتبروه نورًا جديدًا مشعًّا في ظلام ليل المستعمر، الذي نهب البلاد وأذل العباد.

كان الناصريون يستمعون لخطاباته الحماسية التي تُجمّد عقولهم، فالمذياع كان لا يفارق إذن والدي رحمه الله وغفر له .. يبثُ أثيره من محطته الخاصة كل خطاباته الساحرة وبياناته النارية، التي في مطلعها عزيمته الشرسة على تحرير القُدس المحتلة من اليهود الصهاينة المجرمين، ورميهم في البحر، ثمّ إعادة أبناء فلسطين المشردين إلى أرضهم المسلوبة، وبين صوت مطربته المشهورة؛ من أجل تخدير فكر الأمة العربية، وأغنيتها الناصرية الحماسية (راجعين بقوة السلاح)، والله سبحانه وتعالى فضحه وأخزاه في الدنيا قبل الآخرة بهزيمة حزيران 1967م، ولكن أذناب جمهور إعلامه اللعين سوقها له في أجهزتهم الإعلامية على أنها (نكسة)، وليست (هزيمة).

ولذا أنا أكره هذا الاسم، ولا أطيق فكره الذي كان عالة على الأمة الإسلامية بنعرته القومية. كان (عبد الناصر) معاديًا للإسلام والمسلمين.. قتل بعض الدعاة في مصر، وفر الكثير منهم في بقاع الأرض بعد خروجهم من أقفاص سليله المراهق (عبد الحكيم عامر).

- كل هذا الكلام الذي ذكرته لا يعنينا ولا يخصنا في التحقيق، هل معك دفتر (التابعية) يا عبد الرحمن؟

- لا يا أخي العزيز .. في (العزبة)، معي رخصة القيادة بعد تعديل الاسم.

- إذن دعني أكتب منها المعلومات، ريثما تأتي لنا بدفتر (التابعية) عندما ننتهي من التحقيق، عليك إحضاره لنا لنقل المعلومات الصحيحة منه؛ فهو الوثيقة الرسمية الذي نعتمد عليه في التحقيقات هنا.

- إن شاء الله يا أخي العزيز.

- جمال، عفوًا قصدي عبد الرحمن، أين كنتَ ليلة حريق بقالة (ياسين)؟

- يا أخي العزيز، كنتُ نائمًا في العزبة، كُنا نغط في نوم عميق دون أحلام مرعبة تأتي بنا لمركز الشرطة، فأزعجنا (أنا وأصحابي الثلاثة في

العزبة) صوت زعيق صفارات الدفاع المدني، التي قَدِمت من كل جهة لحارة الصالحية، رغم السيارات الكثيرة التي أغلقت الطرق المؤدية لموقع الحريق، فكل من يمر في الدوّار يتوقف ويُريد - بفضول - معرفة تفاصيل الحريق ومسبباته، كما جرت العادة.

- من كان معك في العزبة؟

- معي أعضاء العزبة الثلاثة: داود، ناصر، وسامي .. كلهم طلاب جامعة.

- أين كنتَ بعد صلاة العشاء في ليلة الحريق؟

- أخي العزيز، كنت في منزل أخي العزيز (عبد المحسن).

- ومن هذا عبد المحسن؟ وماذا كنت تفعل معه؟ وما هو عنوانه؟

- أخي العزيز، اعتدتُ يوميًّا وبعد صلاة العشاء أن أذهب لمنزلهم، الواقع في منطقة (البطيحا)، التي تقع جنوب (مصلى العيد)، ما عدا أيام نهاية الأسبوع؛ فإنه يذهب لأهله في منطقة (القصيم) مع أخيه الذي يصغره .. إنّه شاب ضرير، يضع على عينيه نظارة سوداء عاكسة للصور كالمرآة في الليل والنهّار، يدرس معنا في المعهد العلمي، لكنه في السنة الأخيرة، وفي نيته بعد تخرجه مواصلة دراسته في كليّة أصول الدين، ومن ثمّ مواصلة دراساته العليا لنيل الماجستير والدكتوراه .. أقضي الوقت معه

في قراءة الكتب له، وكتابة ملخصات ما أقرأ له على ورق (فروخ) .. أكتب له في الورقات المسطرة عموديًّا وأفقيًّا بناء على ما يُمليه علي من فهمه للمادة المقروءة .. يحتفظ بالورقات في ملف كبير (بوكس فايل) لأيام الاختبارات؛ لأقرأها له فيما بعد، وأحيانًا أقرأ له ملخصات مكتوبة لغيره يُحضرها لي، فيطلب مني أن أدون ملاحظاته في حواشيها، ويُشبع المسألة التي أقرأها له تعليقًا، فيُناقشها من جميع الوجوه كتابيًّا بالأدلة النقلية والعقلية، ويضع رؤيته الخاصة حولها بترجيحه هو، كما يفعل المجتهد في المسألة.

- وما صلتك به لتقرأ وتكتب له كل هذا؟

- يا أخي العزيز، أقرأ وأكتب له مقابل أتعاب بسيطة أتقاضاها منه، هذا غير الفائدة العلمية التي اكتسبتها من الجلوس بقربه ومرافقته بين صفحات كتبه، ممسكًا بتلابيب عقله وفكره وكتاباته، من سطر لسطر، ومن صفحة لصفحة، ومن كتاب لكتاب آخر .. فعبد المحسن أحد طلاب العلم الذين يحضرون حلقات دروس علماء الرياض في (الجامع الكبير) بالديرة، تعلمت منه فن القراءة وسرعتها، رغم أنه لا يقرأ، وعرفتُ منه فن كتابة المخلصات العلمية وأساليبها الاحترافية، رغم أنه لا يكتب، وأخذ بيدي لفن مناقشة المسائل العلمية وإبداعاتها، وعلاوة على كل هذه المنافع الكثيرة، اتفقت معه بأن تكون الساعة الواحدة

بجلوسي معه بعشرة ريالات، كأتعاب بسيطة لي، تستهلك منها المواصلات بعض الشيء، وعادة أقرأ له في اليوم الواحد لا يقل عن الثلاث ساعات.

- ما قصة خلافك مع قايد صاحب بقالة (يس)؟

- يا أخي العزيز، لا أعلم أن بيني وبينه خلاف أو اختلاف!!

- هو يقول إنك هددته بعد أن نصحته بعدم بيع السجائر في بقالته.

- يا أخي العزيز، الرسول ﷺ قال: «من رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»؛ لذا فإني كل ما فعلته معه مجرد واجب تفرضه علينا شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكنت أخوّفه، وأحذّره من العقاب في الدنيا قبل الآخرة، ولم أفكر بإيذائه في يوم من الأيام، وحزنت كثيرًا لمصابه عندما شاهدت احتراق بقالته، والآن أنا مع إمام مسجد (الروّاف) جزاه الله خيرًا نقوم بحملة تبرعات من سكان الحارة، لجمع مبلغ؛ لمساعدته من أجل إعادة نبض الحياة في بقالته من جديد.

(14)

حاول تركي مع والده عدة مرات أن ينتزع موافقته لإدخال جهاز تلفاز صغير في غرفته الخاصة، المنزوية في ركنٍ من سطح منزلهم العربي، وكأنها غرفة حَمَام، يصعد إليها من درج مرتفع في عتبته الأولى، وغير متساوي الارتفاع في درجاته الباقية، ينبت مباشرة من جوار باب الشارع الحديدي ذي الفتحتين، فرفض والده طلبه رفضًا قاطعًا، وغير قابل للمناقشة والجدال، وهذا من طبع أبي تركي .. شدة إصراره على رأيه بصرف النظر عن صحته، ويمقت الجدال كثيرًا ويكرهه، ويراه من المنكرات المنهي عنها، ودائمًا يستشهد بالحديث النبوي الشريف: «ما ضلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل»، ولقد اعتبر التلفاز من المُلهيات عن العبادة والطاعة والدراسة الجامعيّة، وأصر على الاكتفاء بجهاز واحد في المنزل، وضعه في المجلس الخارجي بعيدًا عن غُرف النوم،

ولم يُدخل التلفاز إلى الصالة الرئيسة في المنزل .. تركه بعيدًا عنهم كضيف أجنبي غريب عليهم، لا يدخل قُرب محارم الغُرف الداخلية في المنزل، رغم أن أبا تركي يُتابع بعض برامجه القليلة والمفضلة لديه، مثل نشرات الأخبار السياسية والاقتصادية، والتي لا يسلم المذيع التلفزيوني من شَتمه له، في كل خبر يُذيعه ولا يُعجبه سماعه، وفي بعض الأحيان يُبالغ في شتائمه، فيسب (الساسة والسياسيين والناس أجمعين)، كما يفعل غيره من المتطرفين.

أبو تركي له فلسفته الخاصة في السياسة المحلية والعالمية، فيرى أن عملية بطولة عبور (السادات) لخط (بارليف)، التي استحوذت على بعض عقول العرب بالفخر والرجاء بقُرب تحرير (القُدس) المحتلة، ما هي إلّا تمثيلية لأكاديمية أمريكية، أو مسرحية ساداتية النشأة والتكوين، أبطالها بعض سماسرة العرب والغرب، كأختها العجوز الشمطاء التي يسمونها النكسة (الناصرية)، التي لم تعد تطل من نوافذ الإعلام العربي إلا بصور الخيبة والفشل الذريع، ولم تعد تُذكر بخير في المجتمعات الإعلامية، وأمست في مقبرة خبر كان.

ويعشق أبو تركي المصارعة الحرة، ويتفاعل معها بحماس، ويقفز في مجلسه كطفل لكل انتصار على خصمه، الذي يصنع شخصيته بنفسه، ويهتف كأنصار مشجعي كرة القدم عند تسجيل أي هدف في مرمى

خصمهم، ويزحف من مكان جلوسه نحو التلفاز أثناء المتابعة، حتى يصل إلى أقرب نقطة من شاشة الجهاز، وينتظر حلقات المصارعة بشوق ولهفة، ولا بد له من تشجيع أحد الطرفين المتصارعين، يحدده في بداية الجولات، حسب خبرته الطويلة ومعرفته بالمتصارعين الأقوياء، وأبو تركي يعرف أغلب الأسماء المشهورة في المصارعة العالمية، ورغم هذا كله عندما علم عن شراء ابنه تركي لجهاز تلفاز صغير مستعمل من (حراج بن قاسم)، بمساعدة أحد أعضاء العزبة، انزعج كثيرًا، وقال له:

- مثل هذه التصرفات المشينة من نتائج رفقاء السوء المحيطين بك، وكثرة الاختلاط مع الغرباء والأجانب.

فلم يرد عليه ابنه تركي، بالرغم من شدة انزعاجه من كلام والده، الذي عامله وكأنه طفلٌ صغير، لا يفقه الحياة، وابتلع ما سمع منه من قسوة بصمتٍ وحزن، رغم ما يختزن في ذاكرته عن حكايات شبابه، التي سمعها من فمه لأكثر من مرة؛ احترامًا وتقديرًا له، عن ذكريات سفرته الوحيدة لمدينة (البصرة) في جنوب (العراق) مع رفاقه الثلاثة أيام شبابه، والتي عادة ما يتفكه بطعم روايتها، لها ذوقها الخاص في مجالس أصحابه وأقرانه، أيام إقامتهم في فندق (بابل)، وكأنها حدثت بالأمس القريب جدًّا؛ لشدة حلاوتها وطراوة مذاقها في الذاكرة.

ثمّ عمد أبو تركي لجهاز التلفاز، فرفعه إلى الأعلى، وأطاح به على الأرض أمام ابنه تركي، فتهشمت شاشته وتكسرت أضلاعه الأربعة.

بعد ذلك التصرف القاسي من أبي تركي لابنه، مد يده لجيبه الطويل الأيسر، فأخرج محفظته السوداء، ودفع له قيمة تكلفة شراء الجهاز، عندما هدأت ردة فعل ثورته من هذا التصرف المشين (حسب رأيه)، وطلب من ابنه - برجاء شديد - ترك رفقة الغُرباء، والاهتمام بأبناء عمومته وأخواله ومعارفه القريبين جدًّا منه.

ذهب أبو تركي في المساء منزعجًا لصاحب مكتب (المجدم) العقاري؛ ليطلب منه إنهاء عقد الإيجار لمنزله المجاور له؛ بحجة حاجته لهذا المنزل؛ نظرًا لقرب زواج ابنه الوحيد تركي، وبحاجة لصيانة وترميم قبل زواجه، كما يفعل أصحاب العقارات دائمًا، باختلاق أتفه الأسباب عندما يرغبون في رفع أسعار إيجار عقاراتهم، ولكنه في حقيقة الأمر أراد أن يبعد الغُرباء الذين هم أبناء العزبة عن حياة ابنه تركي، المتعلق قلبه بحبهم وبطباعهم وبعاداتهم وبتقاليدهم وبلهجتهم، وزاده كرهًا لهم عندما سمع من (العمدة) عن قصة استدعاء (جمال) لمركز الشرطة، وتسرب خبر اعتدائه على الزيدي (قايد) صاحب بقالة (يس) في الحارة، وتورطه في مسؤولية حرقها.

وهكذا تعودت المجتمعات - بصورة عامة - على سرعة تلقف ظاهر الأخبار، دون التأكد من تفاصيلها وصحة حدوثها .. أخبار عارية من أي سند ثقة تتكئ عليه في روايتها، ودون التحقق والتثبت من مصداقيتها، ثمّ يقوم أفراد آخرون من هذه المجتمعات نفسها بإعادة نشرها وترويجها بثوب جديد؛ من أجل إبعاد كل الشكوك التي تحوم حولها، وحسب الطريقة التي تُناسبهم بصور روايتها، بين القص واللزق فيها .. وكأنهم نصّبوا أنفسهم كوكالات إعلامية في المجتمع نفسه؛ لنشر الأخبار بصورة عامة، وهم في الغالب ما نطلق عليهم بوكالة (يقولون).

بعد صلاة المغرب مباشرة طرق باب العزبة (أبو سليمان)، الذي لم يسلم وجهه من أثر الجدري، الذي تعرض له أيام طفولته، صاحب مكتب (المجدم) العقاري؛ ليخبرهم عن ضرورة إخلاء المنزل، حسب طلب المالك، وكما هو معلوم لديهم فإن عقد الإيجار سوف ينتهي بعد شهر، فكان هذا الخبر كالصاعقة على ناصر، الذي لم يفكر إلّا بنفسه وبخصوصيته، فكيف يبتعد عن سكن حبه، وكيف يُفارق جدار بريد حبيبته (منايز)؟!

خاضوا جدالًا عقيمًا مع أبي (سليمان)، الذي اتسم بالعطف والشفقة وروح المحبة .. لم يجنوا منه أية ثمرة استجابة عند باب العزبة؛ نظرًا لرفضه الدخول لمجلس العزبة، وتناول (فنجان) قهوة أو (بيالة)

شاي، وبرر رفضه بأنه تركَ مكتبه مفتوحًا دون رقيب، وما كان له من عذرٍ لصد جدالهم معه، غير أن يقنعهم بضرورة التفاهم مع أبي (تركي)، بأن يحاولوا معه من أجل تمديد فترة العقد لهم سنة أخرى، حتى لو أدى ذلك لزيادة قيمة الإيجار.

استأذن منهم أبو (سليمان) في الانصراف، وقفل راجعًا لمكتبه، وتركهم في نقاشهم، وفي حيرة من أمرهم، وسؤالهم العظيم الذي يفرض نفسه على واقع حالهم: من يقبل هذه الأيام تأجير سكن عزوبيّة بمنطقة مكتظة بالعوائل مثل حارة الصالحية وغيرها؟ في الوقت الذي بدأت فيه تزدحم حواري الرياض بالسكان الوافدين لها من القرى والمدن الصغيرة المجاورة لها؛ مما ساهم في رفع أسعار الإيجارات بصورة غير طبيعية.

فاقترح (داود) على ابن خالته (عبد الرحمن)، أن يطلب من جماعة المسجد مساعدتهم، بأن يؤثروا على قرار أبي (تركي)؛ فعبد الرحمن مقبول طلبه لديهم .. هو من يؤمهم بالصلاة في أثناء غياب الإمام في كثير من الفروض الخمسة، ويُعتبر شخصية محبوبة ومحترمة من قبلهم، وكثيرًا ما كان يُفتيهم في بعض المسائل الدارجة في الحياة اليوميّة، والمتعارف عليها بين الطلاب .. مسائل سمعها في المعهد العلمي، أو أنه سمعها من كثرة مخالطته لطلاب العلم الشرعي، فلعل وعسى أن يتراجع (أبو تركي) عن

قراره بطردهم، إن كلمة جماعة مسجد (الروّاف)، وبالذات المقربين له، الذين يحافظون على الصف الأول، ويجلسون خلف المحراب مباشرة لساعات طويلة، منتظرين إقامة الصلاة، يقرأون القرآن ويسبحون الله ويذكرونه، فما كان رد عبد الرحمن لهم إلا أن قال:

- حسب معرفتي الشخصية بأبي تركي، ليس من السهل إقناعه والتأثير عليه .. إنه ليس من الناس الذين يتراجعون عن قراراتهم، بصرف النظر عن نسبة صحتها، وبصورة عامة فإن أبا تركي يتغيّب كثيرًا عن جماعة المسجد هذه الأيام .. أظنه يُصلي في مسجد آخر قريب من هنا، ربما في نفسه شيء من طرف المؤذن .. سمعته مرة يتناقش معه بخصوص تشغيل مراوح المسجد، فهو يظن أن الجو بارد، ولا يستدعي هذه المراوح السقفية التي تؤثر على الصحة العامة، وكان وقتها منزعجًا في نقاشه معه، وحادًّا في حواره مع المؤذن، بل كان صوتهما ملفتًا لنظر من في المسجد، الذين كان بعضهم يؤدي صلاة تحية المسجد، وآخرون يُرتلون القرآن بخشوع.

وصراعات المؤذن (أبو جوهر) مع جماعة المسجد لم تقف عند أسوار خلافاته مع أبي تركي، بل تتجاوزه لآخرين من جماعة المسجد، حتى أنّ إمام المسجد لم يسلم من لسانه السليط .. فالإمام (عبد الرزاق) يخشى بينه وبين نفسه أن يقول له: (أقم الصلاة) .. في أكثر الأحيان يترك له

وقت إقامة الصلاة حسب توقيته المناسب والدقيق، فالإمام يخاف أن يُفسر هذا على أنه أَمَره، فيرفض إقامتها.

ولا زال الإمام يذكر قصة خلافه معه، والتي امتدت لعدة شهور؛ بسبب إصراره على إقامة الصلاة في (حوش) المسجد، وأن تكون الصلاة على (البحص) الناعم، بدلًا من الصلاة من فوق السجاد النظيف.

ونادرًا ما يكون بينهما وفاق واتفاق، في رحاب المسجد أو في خارجه، رغم السيرة العطرة للإمام بين جماعة المسجد في الحارة، ونوعية شخصيته المحبوبة بينهم؛ فقد تمكن من تأليف قلوب أهل الحارة، وعمل لهم (دورية) عشاء في بداية كل شهر هجري، فكانت بدعة حسنة منه، اقتدى فيها بعض أئمة المساجد والجوامع المجاورة فيما بعد، وبعمله الاجتماعي هذا تعارف أهل الحي الواحد فيما بينهم.

ومفهوم (الكسب) والقبول حسب رأي الإمام (عبد الرزاق): هو مشاهدته قبول جماعة المسجد لأفكاره وآرائه، ومشاركاته معهم في جوانب الحياة العامة والخاصة، فعمل الإمام لا يقتصر على الإمامة في أوقات الصلوات، بل يتجاوزها لمسؤوليته عن تفقد مرضى أهل الحي وزيارتهم، ومعرفة حوائجهم المادية والمعنوية، والعمل على وحدة صفهم، وتأليف قلوبهم بالعطايا والهدايا، والإمساك بيد المخطئ فيهم، وتوجيهه

للصواب، ومثل هذه الأخلاق الإسلامية الفاضلة مهمة، يحتاجها كل إنسان، مهما علا أو انخفض في مقامه ومنصبه.

والمؤذن (أبو جوهر) مُتقدم في العمر، ولا يحبذ وضع (العُقال) فوق رأسه، ويكاد يُنكره على من يضعه في عمره، بظنه أنه بدعة لم يرد فيه نص شرعي من الكتاب والسنة، أفنى شبابه كاتبًا بالمرتبة الخامسة في إدارة الصادر والوارد بوزارة المواصلات، وبعد تقاعده استأجر دكانًا صغيرًا في سوق (الجفرة) بالديرة، يبيع فيه البخور والعطور، ومشهور عنه في السوق نزاهته في العمل، وعدم غشه للزبون، ولكن سعره غالٍ ومبالغ فيه، ولا يبالي أبو جوهر في ذهاب الزبون دون أن يشتري منه، و(العود) سلعة مجهولة للكثيرين من الناس، وكثير من زبائنه لا يفرقون بين الجيد والمغشوش.

أبو جوهر حافظٌ للجزئين الأخيرين من كتاب الله، ويُفاخر بهما أقرانه من أهله وجماعته، ويبدأ في قراءتهما قبل صلاة الفجر، ويختم فيهما يومه قبل صلاة العشاء يوميًّا، حفظهما أيام مدارس (الكتاتيب) الأهلية في قريته، ويُقلد في أذانه صوت (ابن ماجد) مؤذن الجامع الكبير في (الديرة)، ويرى أن إمام المسجد من جيل أبنائه، وعليه أن يحترمه ويقدره، ويُقدم له الولاء والطاعة، وأن يُقبل رأسه يوميًّا، وهو الذي طلب من الإمام القراءة لجماعة المسجد من كتاب التوحيد كل يوم بعد أداء صلاة العصر.

- بقي كم أسبوعًا من الإيجار؟ (سأل ناصر) ..

في أثناء حوارهم سمعوا صوت جرس الباب، قبل أن يتمكن أحد من الرد على سؤال ناصر، الذي بقي سؤاله معلقًا دون إجابة، فذهب عبد الرحمن لفتحه، كان واقفًا وهو أقربهم للباب، وإذ بتركي يدخل عليهم، والفرحة تنط من بين شفتيه، حاملًا كرتونًا متوسط الحجم بين يديه، يحتضنه كعودة حبيبة غائبة عنه، قادمة من سفر بعيد، كُتب على جنب الكرتون بخط جميل باللغة الإنكليزية وبلونٍ أحمر: (جي في سي)، وسَلَّم عليهم.

- عليكم السلام ورحمة الله، ما هذا الكرتون الذي تحتضنه بين يديك يا تركي؟ (سأل عبد الرحمن باستغراب ودهشةٍ) ..

- يسمونه جهاز فيديو.

- هدية للعزبة يا تركي؟ يسأله داود بمكر وخبث وهو يُدير عينيه الجاحظتين لسامي بطرف زاوية عينه، كأن بينهما شيئًا ما، مُعد الطبخة مسبقًا.

- لا .. إنه هدية لتركي، اشتريته من عمائر (الراجحي) في (البطحاء)، لديهم (تنزيلات) بمناسبة نهاية السنة الميلادية كعادتهم، تصفية مستودعات لبضائع جديدة قادمة ليس لها مكان، جئت به إلى هنا مؤقتًا

ريثما أكتشف طريقة مناسبة لإقناع الوالد بدخول مثل هذا الشيطان الرجيم لمنزلنا.

- تعال يا تركي واسمع والدك (الله يغفر) لنا وله ماذا فعل!! قرر طردنا من المنزل!! قالها سامي بحسرة.

- كيف؟ ماذا حصل؟ لم أسمع!! ولم يُخبرني والدي عن هذا الأمر مطلقًا، سوف أناقش معه هذا الموضوع، وأحاول التأثير عليه لتغيير رأيه.

- أظنه طردنا بسببك أنت يا تركي .. (قالها ناصر منزعجًا جدًّا مما حصل، وهو ينظر للأرض؛ للهروب من نظرات صديقه تركي)!!

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. ما هذا يا ناصر، فالأمر سهل ولا يستدعي مثل هذا الكلام الجارح الذي أسمعه منك .. سوف أناقش مع والدي الأمر هذه الليلة، وأنا أعرف كيف أقنعه إن شاء الله، رجاء اتركوا المسألة لي، ولكن هيا ساعدوني بوسيلة كي أدخل هذا الجهاز لبيتنا، وأقنع الوالد بأنه ليس شيطانًا، هل من رأي عندكم؟

- أفضل طريقة بظني، قل لهم إنك حصلت على هذا الجهاز هدية من أسواق (يوروماركيه)، تسوّقت منهم في الأسبوع الماضي طلبات الوالدة حفظها الله، وملأت كوبون سحب على جوائز، وأودعته في الصندوق الخاص بالقرعة، بعد أن دونت رقم هاتف منزلكم في الكوبون، فكنت

فائزًا بأحد جوائزهم، ودعني أتصل على رقم منزلكم؛ لأخبر من يرد على جهاز الهاتف، بأن تركي فاز بجائزة، عليه المجيء لاستلام جائزته من أسواق (يورومارشيه) في أقرب فرصة ممكنة .. (قالها سامي).

- روعة .. فكرة لم تخطر في بالي أبدًا، شكرًا لك سامي، هيا نذهب للهاتف العمومي ونتصل الآن على رقم منزلنا، أخشى الاتصال من هنا، فيكتشفون رقم العزبة، فلدينا في جهاز الهاتف كاشف الأرقام .. وخير البر عاجله.

(15)

وكما توقع أعضاء العزبة، عندما دخل تركي منزلهم، استقبله جميع أهله بالتهنئة والتبريك، بما فيهم والده، على فوزه بجائزة من أسواق (يورومارشيه)، وطلب منه والده سرعة الذهاب لهم قبل أن يتراجعوا عن رأيهم، فوعدهم تركي في الغد بأن يذهب لإدارتهم ويحضر الجائزة لهم، متمنيًا أن تكون الجائزة مكيفًا جديدًا، بدلًا من المكيف (اليورك) القديم المتهالك الذي في غرفته، الذي يطحن صوتًا بدون هواء بارد في أيام القيظ اللاهبة.

دخل تركي على أهله في مساء اليوم التالي حاملًا كرتون الفيديو، ليضعه فوق دولاب التلفاز مغالبًا لهاثه، وهم في شوق ينتظرون هذه المفاجأة السارة، التي أصبحوا فيها شركاء معه، واستغربوا من حجم

وشكل الكرتون الذي يحمله بين يديه، فسأله والده بحماس لمعرفة هذه المفاجأة:

- ما هذا يا تركي؟

- جهاز فيديو يا أبا تركي، نستأجر شريط فيديو خاص لهذا الجهاز، من محلات تبيع وتُؤجر أشرطته، انتشرت محلاتها أخيرًا في كل من حي المربع وشرق حديقة الفوطة، وفي شارع الأربعين من حي (الملز)، هذه الأشرطة تشبه شريط كاسيت مسجل السيارة، لكن حجمها أكبر منه، خزنوا فيها صورة وصوتًا، ولجهاز الفيديو (توصيلة) خاصة لجهاز التلفاز، فنعرض ما في داخل الشريط من مادة مسجلة مسبقًا، بدلًا من أن تتحكم فينا القناة الأولى والقناة الثانية في برامجهما، ومن اليوم نحن من يتحكم بما يُعرض على جهازنا يا أبا تركي؛ بل نحن نستطيع تسجيل ما يناسبنا من جهاز التلفاز مباشرة على الشريط، نسجل لك حلقات المصارعة في أثناء غيابك، التي لا تتمكن من مشاهدتها.

- هل يُوجد أشرطة فيديو للمصارعة الحرة لدى هذه المحلات التي ذكرتها يا تركي؟ (سأل أبو تركي ابنه).

- نعم، توجد أشرطة مصارعة حرة وأفلام عربية وأجنبية، وأفلام كارتون، غدًا ستذهب معي لنختار مجموعة أشرطة من أحد هذه المحلات إن شاء الله.

كم كان تركي سعيدًا عندما شعر باهتمام والده بجهاز الفيديو وأشرطته، وعدم اعتراضه على هذا الجهاز الجديد، وبالتأكيد إن أبا تركي لم يسمع به مسبقًا في مجالسه الخاصة والعامة، ولم يسمع شيئًا عن شره وعن قضية تحريمه.

ذهب تركي بسيارته الخاصة مع والده لأحد المحلات المشهورة في إيجار الأشرطة وبيعها، الواقع في شارع الأربعين بحي الملز، وعندما ركن تركي سيارته قُرب المحل، رفض أبو تركي النزول، واعتذر منه، عندما شاهد كل زبائن المحل من الشباب، من أعمار ابنه تركي.

فترجَّل تركي لوحده من السيارة، بعدما أوصاه والده على أشرطة المصارعة الحرة، وحرّصه على الجديدة منها بالذات، فرجع تركي للسيارة ويحمل معه أربعة أشرطة فيديو، وفي طريق عودتهم للمنزل طلب منه والده أن يُشاهد هذه الأشرطة لوحده بداية، في غرفته الخاصة، قبل عرضها في جهاز تلفاز المجلس، أمام والدته وأخواته.

فكانت مهمة ومسؤولية تركي نقل التلفاز وجهاز الفيديو لغرفة والده، وتوصيل الفيديو به كلما استأجر أشرطة جديدة؛ ومن ثم عليه إعادتهما لمكانهما في المجلس، عندما يستكمل والده مهمته الرقابية للأشرطة الجديدة، وهذا ما تم لأبي تركي بالفعل، فأصبحت مهمة تركي اختيار

الأشرطة المناسبة وإحضارها للمنزل، ثمّ تمر على هذه الرقابة الداخلية الصارمة، فيرفض أبو تركي ما لا يُناسبه من أشرطة، فيها خدش للحياء، أو عناق دافئ، أو لبس قصير سافر، ويقبل ما يتناسب مع ميوله وهواه وقناعته بعرضه، رغم أن تركي يقوم بتهريب أشرطته الخاصة لغرفته دون علم أحد، ويشاهدها لوحده في آخر الليل، عندما يشعر بأن الجميع في سباتٍ عميقٍ.

وقد أتعبت تركي هذه (الرقابة) الصارمة، وغيرها من تصرفات والده الكثيرة معه، وأزعجه أخيرًا رفضه وساطته لأصحابه في العزبة؛ من أجل إبقائهم في المنزل المجاور له؛ لذا جعلته مثل هذه الظروف يفكر في الهجرة للسكن الجامعي، ويُقيم في غرفة واحدة مع (سامي)، فشحذ همته في البحث عن سبب مقنع لوالده.

وهكذا ينفر الإنسان من قيوده حين تُحاصره، عند أول بارقة حرية تشرق له، فيحاول الهرب بعيدًا، فالإنسان خُلق للحرية، لا للتكبيل والقيود.

(16)

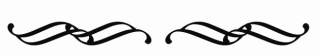

أصر أبو تركي على رأيه، بإخراج أعضاء العزبة من منزله المجاور، رغم توسل ابنه تركي، وشفاعة جماعة مسجد (الروّاف) لهم، بما فيهم الإمام (عبد الرزاق)؛ حبًّا في زميلهم المتديّن (عبد الرحمن)؛ مما جعل أعضاء العزبة يبحثون عن سكن آخر لهم .. وتناقل أهالي الحارة باستغراب خبر إصرار أبي تركي على إخراجهم من منزله بدون سبب يُذكر، وبالذات جماعة المسجد، الذين هم من ساهم بإشاعة الخبر وتأكيده، فهم من بذل جهدًا كبيرًا بالشفاعة لأعضاء العزبة عنده؛ لذا فإن أبا تركي لم يسلم من بشاعة نقدهم وغيبتهم له، فقذفوه بالجشاعة الفظيعة والطمع، وقالوا: في نيته رفع سعر إيجار منزله لآخرين، ولم يجدوا له تبريرًا آخر لمثل هذا التصرف.

وسرعان ما انتقل مثل هذا الخبر بين أهالي الحارة، فالأيام علَّمت أبناء الحي الواحد معاني الشراكة في كل صغيرة وكبيرة، فسمع به كل من (حسن) صاحب المغسلة، وقايد الذي دشن بقالته مؤخرًا بثوب معاصر جديد، بفضل الله، ثم بفضل جهود أبناء الحي، من عمل لوحة جديدة مضاءة بألوان زاهية جميلة، وأرفف ألومنيوم حديثة، وبضاعة متنوعة كثيرة، بعد أن جمع له أهالي الحي ما تيسر من دعم مادي، كما حثوا كل المديّنيّن للبقالة على سرعة سداد ما في ذمتهم له، وقدم له أحد المحسنين في الحي قرضًا حسنًا؛ كي يستعيد نشاطه من جديد، وتبرع له إمام المسجد بسيارته القديمة (البيك آب)، التي استهلكها في مشاوير الأجرة الكثيرة، بعد أن منّ الله عليه بالزيادة السنويّة الكبيرة في راتبه، فاشترى له سيارة جديدة.

اقترح حسن (أبو علي) على صديقه الوفي (ناصر) السكن في حي (منفوحة) .. يعرف شقة صغيرة معروضة للإيجار، تطلُ نوافذها على شارع (منفوحة) العام، كانت مُستأجرة من قِبل مصري، جاء مَحْرمًا لزوجته المُدرّسة .. الشقة مكونة من صالة، والتي تُعتبر مدخلًا رئيسًا للشقة، وغرفة نوم كبيرة نوعًا ما، ومطبخ صغير، ينبت على استحياء عند مدخل الشقة، يعبق برائحة طبخة الملوخية المصرية الشهية، ودورة مياه عربية ضيقة مسروقة من بيت الدرج المؤدي لسطح العمارة المشترك بين

جميع سكانها. تقع الشقة مباشرة فوق مخبز (أبو حديد)، لها مدخل من الشارع الفرعي النافذ لعمق الحارة، بابها الرئيس حديد مطلي باللون الأسود، مفتوح في الليل والنّهار، يأتي خلفه مباشرة درج متكسّرة عتباته الأولى، ومُهمل في تنظيفه، طويل جدًّا، دون أية استراحات لالتقاط الأنفاس، ثمّ باب خشب يؤدي للشقة، سعرها مناسب لطلبة أمثالكم، غير صالحة للسكن العائلي مطلقًا؛ لذا هجرها المصري وزوجته دون التفكير في العودة إليها مرة أخرى، وأظن أن مالكها لن يجد أفضل منكم زبونًا خاطبًا لها، ويعلم جيدًا بأن شقته صالحة لحياة العزوبيّة.

فشكره ناصر كثيرًا على مشاعره الطيّبة، ووعده بأن يعرض مواصفات هذه الشقة على باقي أعضاء العزبة، أما هو فسوف يستأجر شقة في شارع (العصارات)، اتفق مع شاب حجازي اسمه (يوسف)، زميل يعمل معه في المصرف، قادم من مدينة (جدة)، أما سامي فقد قرر أن يهجر العزبة، وينتقل للسكن الجامعي، واتفق أن يُقيم في غرفة واحدة مع تركي؛ بسبب مشاكله الكثيرة المتوترة مع (عبد الرحمن)، فيشتد الخلاف بينهما، ويتطرف الحديث في كثير من المواقف، ويتبادلا الكلمات التي تتجاوز حدود الصداقة والأخوة، وتصل العلاقة بينهما لدرجة القطيعة وعدم السلام بينهما، وتتكهرب العزبة في أي صدام يخوضه الاثنان، ويصرُّ سامي في كل المواقف على مناداته بـــجمال بدلًا

من (عبد الرحمن)؛ مما يغيظه هذا كثيرًا، فتتكهرب أعصابه الهادئة، وسبب الخلاف بينهما ناشئ من أن (عبد الرحمن) لا يُريد سماع أغاني الطرب والموسيقى في العزبة، أو حتى في السيارة أثناء مشاوريهم مع بعض، ويراها من المحرمات والمنكرات، والواجب على المسلم الملتزم النهي عنها، وتذكيرهم بالأدلة الشرعية فيها، بما جاء في الكتاب والسنة النبوية المطهرة، بينما يُصرُّ (سامي) على رفع صوت المسجل بأغنية (بعاد) لمحمد عبده؛ مما جعل العزبة في حالة توتر شديد، وأعضاء العزبة الآخرين في مواقف محرجة من خلافهما، لا يُحسدون عليه أبدًا .. فكلما ذهب معهم (عبد الرحمن) في مشوار، أخرج من جيبه شريط كاسيت عن محاضرة دينيّة، ودسه في قلب مسجل السيارة، وعادة ما تكون هذه الأشرطة دينيّة لأحد المصريين المشهورين، مثل (حسن أيوب)، أو (سيد كشك)، أو تكون المحاضرة للداعية الكويتي الذي ذاع صيته (أحمد القطان)، وفرض عليهم سماعه، فيبدأ سامي متحديًا له، فيُدندن بصوت عالٍ في أحد الأغاني التي يحفظها، غير مبالٍ بما يسمع، متخذًا من المسألة موقف عناد وتحدٍّ، وليست دينًا وعقيدة، ولذا فلم يبقَ في العزبة من أعضاء غير داود وابن خالته عبد الرحمن.

اقتنع داود وابن خالته بالشقة، وبسعر إيجارها، بعد أن تم لهما رؤيتها الشرعية، ولكنهما وقعا في مشكلة سعرها، هما بحاجة لعضو ثالث

يكون معهما في العزبة؛ ليتحملوا الثلاثة تكلفة إيجارها، وسرعان ما وجدا أحد زملائهم الذي يدرس في كلية التربية، اسمه (حامد)، جاءهم فارًّا من مشاكل السكن الجامعي، ومن تجمع الطلاب في غرفته لوقت متأخر من الليل؛ بسبب وجود شريكه في الغرفة، القادم من منطقة الجنوب، وكثيرًا ما كانت تضيع الأوقات في مناقشات كرويّة سخيفة، مع عدم توفر الهدوء للمذاكرة داخل الغُرف، إضافة إلى ذلك، فإنه هارب من سوء التغذية بالسكن، ومنعهم من إعداد الوجبات الغذائية داخل الغُرف، فكان الطلبة يَقبلون ما يُقدمه لهم الطباخون من الهنود واليمانيين، من طبخات مكررة، فيوم (كبسة دجاج)، ويوم آخر (كبسة لحم)، وإن غيروا في هذا (المنيو)، أضافوا لهما (مكرونة بالطماطم)، أو طبق (سمك مقلي)، بالرغم من أن هذه الوجبات الغذائية أسعارها مناسبة للطلاب المقيمين في السكن الجامعي، فأسعارهم مدعومة من قبل الجامعة.

انتقل كل من (داود) و(عبد الرحمن) لعزبتهم الجديدة في حارة (منفوحة)، بعد أن تنازل لهما كل من (ناصر) و(سامي) عن حقوقهما في ممتلكات عزبة حارة الصالحية، التي كانت تكاليف تأسيسها مشتركة بينهم؛ لتبدأ لهما حياة جديدة في عزبة حارة منفوحة، باستضافة عضو جديد فيها، لا يعرفون عن ميوله ومزاجه شيئًا.

حارة منفوحة صاخبة في حركتها بالليل والنّهار، ذات كثافة سكانية عالية، متنوعة الأعراق في جنسها البشري، ليست كحارة الصالحية الهادئة، ذات الطابع النجدي الهادئ في كل شيء .. استقرا مع زميلهم الجديد (حامد) في العزبة، الساخنة في أيام القيظ، والدافئة في ليالي صقيع الشتاء، بفعل حرارة تنور المخبز، القابع مباشرة في أسفل شقتهم.

بعد مرور كم أسبوعًا من استقرارهم بدأت بوادر المشاكل تنهض بعزيمة في عزبة (منفوحة)، بين كل من قاسم وأخيه ناجي من جهة، وبين أعضاء العزبة من جهة أخرى؛ بسبب انزعاجهم من كثرة زوارهم، الذين لا تنقطع أقدامهم عن العزبة، فقاسم وأصحابه ينامون مبكرًا، في الثلث الأول من الليل؛ لينهضوا فجرًا قبل انبلاج نور الصباح بساعات قليلة استعدادًا للعمل، بينما أعضاء العزبة وزوارهم اعتادوا على السهر حتى ما قُبيل أذان الفجر .. هكذا كان نظامهم منذ أيام عزبة حارة الصالحية، ما عدا الشاب الملتزم (عبد الرحمن)، الذي يُفضل النوم مبكرًا لينهض قبل أذان الفجر بدقائق كعادته؛ بفضل وجود ساعته (الخراشة)، التي تُزعج من ينام بقربه؛ ليُؤذن لصلاة الفجر في حالة تأخر أو غياب مؤذن جامع (طلحة).

أصواتهم المرتفعة الممتلئة بالضحك والصراخ والركض خلف بعضهم البعض بجنون، وكأنهم أطفال، ناهيك عن صوت التلفاز المرتفع بأغنية أو بصوت أحد المسلسلات المصرية .. كانت كلها مصدر إزعاج لهم، وقلق لراحتهم منذ مجيئهم، علاوة على ذلك كثرة حركتهم داخل شقتهم؛ فأقدامهم لا تهدأ عن المشي فوق البلاطات المتحركة داخل الشقة ليلًا، وتنشط الزيارات لهم في نهاية الأسبوع .. يتوافد عليهم طلاب السكن الجامعي؛ لقضاء عطلة نهاية الأسبوع بعيدًا عن بيئة الجامعة، وهروبًا من أجواء الدراسة.

وبالرغم من كثرة محاولات كل من الصديقين قاسم وقايد المتكررة لهم، والتي اتسمت بطابع الود والمحبة، والممزوجة بعواطف روح الأخوة والمعرفة السابقة؛ من أجل احتواء وحل المشكلة المتأزمة بينهم، غير أن أعضاء العزبة غير مكترثين بضرورة مراعاة ظروف حسن الجِوار للطرفين، فلم ينفع الحديث معهم، ولم يكن مُجديًا .. يسمعان منهم وعودًا حسنة في التزامهم بالهدوء، دون تنفيذ لها على أرض الواقع؛ لذا قام كل من قاسم وأخيه - كردة فعل لسوء تصرفهم معهم - بمنع أعضاء العزبة وزوارهم من ركن سياراتهم بجانب رصيف المخبز، ورفضا التعامل معهم في كل شيء، ورفضا بيعهم الخبز كذلك، وعمدوا في أوقات

الفجر لتشغيل جهاز الراديو على إذاعة القرآن الكريم بأعلى صوته؛ كي يصل الصوت لمسامعهم ويزعجهم في منامهم.

وقايد دائمًا يضع اللوم على ابن عمهم حسن، الذي ساقهم لحارة منفوحة، ودلهم على الشقة المعروضة للإيجار، وأيده قاسم بقوةٍ، فأكثروا العتب عليه؛ مما اضطره إلى أن يهجر السكن مع أبناء عمومته في منفوحة، ويتخذ من مغسلته مسكنًا له، بعد أن اقتطع الجزء الداخلي منها بستارة مشجرة طويلة، رسم عليها (دوّار الشمس)، امتدت بين الجدارين في المغسلة، وجعله غرفة نوم له، وهكذا وقعت القطيعة بينه وبين أبناء عمومته، قطيعة زادها مرور الأيام رسوخًا.

(17)

في منتصف ليلة الجمعة - بعد عودة (قايد) من بقالته - تجمع بعض سكان الحي حول مكان الحريق، الذي أضاء الشارع العام في (منفوحة)، قادمين بسرعة من الأزقة الفرعية الضيقة من عمق الحي، الذي تُنير شوارعه بعض المصابيح المعلقة فوق أبواب منازل الحي، ينتظرون وصول سيّارات المطافئ، وسيارة الهلال الأحمر، بأصوات صفاراتهم المزعجة. قام أحد المتبرعين في الحي بالاتصال على هاتفهم فور مشاهدته للهب النار .. جاء أبناء الحي يتدافعون بسرعة لأقرب نقطة ممكنة من موقع مخبز (أبو حديد)؛ لمشاهدة مكان الحريق عن قُرب، الذي أخذ يلتهم (البيك آب) ذا اللون الأبيض بأكمله، والتابع للزيدي (قايد)، المركون قرب رصيف باب مخبز (أبو حديد).

تجمع أعضاء العزبة وجميع زوارهم حول (البيك آب) قبل وصول رجال الدفاع المدني بوقت؛ لمحاولة تقديم المساعدة بما يستطيعون، وشاهدوا (قايد) وأصحابه اليمانيين في وسط زحمة المتعاونين بهمّة ونشاط؛ لمحاولة إخماد النار بالطرق البدائية، قبل أن تتوسع دائرة الحريق لأماكن أخرى، وقد أصابهم الذعر والهلع مما هم فيه.

حاول رجال الدفاع المدني - عند بداية وصولهم بكل جهدهم - أن لا يمتد الحريق للسيّارات الأخرى المجاورة، المركونة بقرب (البيك آب)، فبدأوا بزحزحتها عن أماكنها عدة أمتار؛ لعدم وجود أصحابها؛ خوفًا من احتراقها، رغم أن إحدى السيارات لم تسلم مقدمتها من لهب الحريق، كما لم تسلم لوحة (المخبز) البلاستيكية من الذوبان؛ بفعل الحرارة القريبة منها.

قاسم يرجو الله (بينه وبين نفسه) أن لا تمتد ألسنة لهب النار لأنابيب خزان (الكيروسين) الموجود في داخل (المخبز).

بعض أعضاء العزبة سمع صاحب تاكسي، لون بشرته سمراء، يتحدث لبعض المتواجدين بصوت عالٍ، يصف لهم رؤيته لبداية الحريق، ولكن لم يأخذ أحد بقوله:

- بينما كنت أركن سيارتي في الجهة الجنوبية من الشارع كعادتي كل ليلة، في الجهة المقابلة للمخبز، وكنت غير بعيد عن (البيك آب)، شاهدتُ مجهولًا مُلثمًا وجهه بالكامل (بشماغ) أحمر، أشعل النار فيه، كان يحمل معه قارورة ماء كبيرة، رماها في حوض البيك آب، عندما كنتُ أغلق النوافذ الخلفية لسيارتي، ثم أشعل النار بقطعة قماش كان يحملها بيده الأخرى، ورماها في حوض (البيك آب)، وهرب مسرعًا من هذا النافذ المجاور، واختفى.

وكان يُشير بيده للنافذ الذي هرب منه مُنفذ الحريق، بينما فسرَ بعض الموجودين في مكان الحريق السبب لارتفاع درجة حرارة (ماكينة) السيارة؛ بسبب مشاكل (الراديتير) المتكررة، وبسبب إهمال (قايد) صيانة سيّارته، فكثيرًا ما شاهدوه يتوقف في عرض الشوارع ليقوم بتعبئة الماء في (الراديتير) الساخن.

(18)

اضطر أبو تركي لاستقدام سائق خاص من الهند؛ لخدمة مشاوير عائلته الكثيرة، بعد أن تقدم به العمر، وهاجمته بعض أمراض الشيخوخة من ضغط وسكر وضعف في البصر، فأصبح لا يُطيق زحمة السيّارات في شوارع الرياض، التي تزداد يومًا بعد يوم بسرعة مخيفة، وبعد أن هجرهم ابنه (تركي)، فلم يعد يُقدم لهم بعض الواجبات التي كان يقوم بها سابقًا؛ بسبب انتقاله للسكن الجامعي في سنته الأخيرة، وكان تبريره الشرعي الوحيد لوالده وأهله ضرورة تفرغه في هذه السنة الأخيرة من الجامعة للدراسة، ولم يكن يعلم والده بأنه سيُقيم في غرفة واحدة مع المدعو (سامي)، أحد أعضاء العزبة المجاورة لهم سابقًا .. كان تركي يخاف من غضبه، ورفضه تمامًا لفكرة السكن الجامعي.

كان حلمًا يتقد شوقه كل يوم في صدر (كُومار)، أن يأتي للعمل في السعودية .. نشأ هذا الحلم منذ نعومة أظفاره، حين سمع عن ثراء ابن جارهم (مرديار)، الذي كان والده بائعًا للسمك على الرصيف، الذي عمل لفترة عشر سنواتٍ متتالية في السعودية، فكوَّن هذا الثراء الفاحش في نظر أهل قريته الصغيرة.

دفع (كُومار) عشرة آلاف روبيّة قيمة شراء (الفيزا) المسمَّسرة عبر سلسلة طويلة من المكاتب الجشعة في الهند .. دفع (كُومار) كل ما جمعه أهله في رحلة شقاء العمر، حتى (بقرة) المنزل الحلوب، لم تسلم من تسييل الممتلكات المنقولة وغير المنقولة، تم بيعها في السوق مع عجلها الصغير؛ لدعم مشروع سفره للسعودية.

تُعلن مضيفة الخطوط الجوية العربية السعودية عن تعليمات ربط الأحزمة للمسافرين؛ من أجل إقلاع الطائرة، فيسمع (كُومار) أدعية وترتيلات لا يفقه من معانيها شيئًا، لكنه تَعلَّمَ من جيرانه المسلمين أن يقولوا (آمين) في آخرِها، ثم يمسحوا بحصيلة ما جمعوا من دعاء في باطن الكفين على الوجه ثلاث مرات، وهكذا (كُومار) فعل في وقتها؛ اقتداءً بالمسلمين الذاهب لعقر دارهم، فعليه أن يتأسى بهم في تفاصيل كل صغيرة وكبيرة؛ آملًا من الرب في أن يرزقه الكثير.

رحلة شاقة تحفها المخاطر الكثيرة من كل جانب، وكل ما يشغل باله وتفكيره أنه لا يعرف من سيكون سيده (الكفيل)، الذي سيستقبله في أرض مطار الرياض في السعودية .. كل ما يعرفه عنه اسمه الأول والأخير، ورقم هاتفه الذي زوده به المكتب في (بومبي).

أخذته نوبة نوم عميقة جدًّا؛ نظرًا لشدة إرهاقه من طول مشوار الطريق، وكثرة التنقلات بين قريته النائية، البعيدة جدًّا عن مطار (بومبي).

صوت ارتطام عجلات الطائرة فوق أرضية مدرج مطار الرياض، أفزعته وأيقظته من النوم، فظن أن الطائرة سقطت من السماء، كما كان يسمع عن سقوطها في الحكايات، فردد كلمات لم يفقهها من كان جالسًا بجواره من مسافرين غير هنود .. ربما كانت تعويذات بوذية أو هندوسية.

حمل على كتفه الأيسر حقيبته الصغيرة الجلدية، ذات اللون الأزرق، المرسوم على جنبها طائرة بيضاء اللون محلقة، ونزل من الطائرة عبر درج الحديد الذي التصق بالطائرة، بعد أن توقفت كل محركاتها تمامًا .. دخل صالة الاستقبال التي وقف بقرب بابها الزجاجي الباص الأحمر الطويل، الذي نقله من ساحة المطار، فتوجه - على الفور - مع سرب المتوجهين لطابور قسم الجوازات .. لا يفقه ما كُتب حوله من لوحات إرشادية في اللغتين (العربية والإنكليزية)، ولكنه يسير مع قافلة الهنود حيثما

ساروا، فختم جواز سفره، وخرج لصالة قدوم المسافرين، دون التوقف في صالة استلام العفش .. كانت عيناه لا تستقران في مكان واحد، كأنهما بوصلتان تبحثان عن تحديد الاتجاه .. تتحركان بسرعة ذات اليمين وذات الشمال؛ بحثًا عن كفيله بين زحمة وجوه المستقبلين .. كفيله الذي لا يعرف من أشباهه شيئًا، ولا يعلم من سيكون، الذي تأخر في وصوله للمطار كثيرًا، فاستقبله من مكتب شرطة جوازات المطار بعد ثماني ساعات انتظار، وبعد عدة محاولات من رجل الأمن للاتصال عليه برقم الهاتف الذي معه، فاعتذر أبو تركي لهم على التأخير، ورحب بسائقه بكلمات مستعجلة وقصيرة لم يفهم منها السائق (كُومار) شيئًا:

- السلام عليكم (رفيق) .. ما اسمك رفيق؟

- كُومار.

فضحك كفيله كثيرًا؛ لأنه لم يسمع لفظ اسمه جيدًا، فظل مرددًا اسمه: أنت نيم حُمار .. حُمار.

- والنعم منك ومن أهلك.

ركبا سيارة (البيجو) وقادَهُ أبو تركي إلى منطقة مشروع فلته الجديدة.. في الطريق توقفا عند إحدى البقالات؛ لشراء بعض الحاجيات اللازمة، التي تخص عزبة (كُومار)؛ من أكل وشِرب ونوم. ثم توقف أبو تركي في

ضاحيةٍ من ضواحي الرياض الجديدة، معظم مبانيها تحت الإنشاء، قال له كفيله:

- هنا منزلي الجديد يا رفيق، ستكون حارسًا هنا على الأغراض من السرقات، وترش الماء في الصباح والمساء على صبات القواعد و(الميدة)، ولا تغب عن هذه الغرفة، ولا تقضي جُل وقتك في لهوٍ ولعب (ورق) مع الحُراس الهنود، وغدًا إن شاء نأخذك لشركة (دلة) في (العليا)؛ لاستخراج رخصة قيادة لك.

دخل (كُومار) عزبته المبنية من (البلوك) المرصوص بعضه فوق بعضٍ بصورة مؤقتة، ودون وجود مادة الأسمنت بينهما، عبارة عن غرفة مُقامة على أرضية الشارع التُرابي، مغطاة بألواح من الأخشاب البالية، فوقها بقايا قماش لخيمة قديمة، بجوار قواعد فيلا كفيله الجديدة .. مد له (كفيله) سلكًا كهربائيًّا من عداد كهرباء جاره؛ لإضاءة مصباح عزبته ليلًا .. جلس (كُومار) في الليلة الأولى من وصوله للرياض يفكر بحزن وأسى على ما هو عليه الآن، ويسأل نفسه: هل هذا هو الطموح الذي جئتُ من أجلهِ؟! هل هذا هو المستقبل الذي كنتُ أنتظره وأخطط له، وبعتُ الغالي والرخيص من أجله؟!

عندها قرر الهرب في الصباح مبكرًا دون عودة لهذا الكفيل الذي رماه في الصحراء بين حبات الرمال في أطراف الرياض.

وقبل شروق الشمس نهض بهمةٍ وعزيمة ونشاط، وحمل حقيبتـه على كتفه؛ فلديه أصحاب من أقاربه وجيرانه يُقيمون في عزبة بمنطقة (الدار البيضاء) جنوب الرياض، سيُقيم معهم، طالمًا أنه لا يزال يحمـلُ حريتـه بيده (جواز سفره)، الذي نسي أبو تركي أن يأخذه منه، رغـم شـدة تنبيـه أصحابه له؛ خوفًا من هروبه.

عندما جاء أبو تركي في صباح اليوم التالي لم يجد سائقه في عزبته، فما كان عليه بعد أن أزبد وأرغى غير إبلاغ أقرب مركز للشرطة عن هروبه؛ خوفًا من وقوع جريمة، وليس من أجل استعادته مرة أخرى، وقَسمَ يمينًا بأنه لن يستقدم سائقًا غيره، واعتبرها أول تجربة له فاشلة، أما زوجته أم (تركي) عندما سمعت بهروب سائقهم (كُومار)، صفقت بيديها وغنت باللهجة المصرية؛ متأثرة بكثرة المسلسلات المصرية التي تُتابعها: (يا فرحة ما تمت)، وقالت في نفسها: ليتني ما أخبرتُ جاراتي بقدوم سائقنا (كُومار)، وليتني لم أستعجل في إذاعة مثل هذا الخبر في الحي، ولن أستبعد أبدًا أن تكون أحد عيون جاراتنا الساخنة، وليس ببعيد عن عين الدلالة (أم عزيز)، التي كنا نتحدث أنا وبعض جاراتي قبل يومين في شدة إصابتها، فقد شاع عنها في الحي أن عينيها حارقة لا تُخطئ هدفها أبدًا.

فلابد أن أجمع جاراتي في جلسة شاي وقهوة؛ للأخذ من أثرهن؛ لعل سائقنا يرجع إذا اغتسلنا فيه.

(19)

بعد وجبة غداء دسمة ساخنة، صنعتها أم تركي بنفسها، جلست بقرب زوجها يتابعان التلفاز بملل واكتئاب، ويرثيان حظهما المتعثر لما حدث من هروب سائقهم الهندي (كُومار)، الذي كان مؤملًا عليه كثيرًا بحل أزمة مشاويرهم العائلية الخاصة، وما كان عزائهما إلّا أن يقولا: (لعله خير لنا إن شاء الله) .. وهو عزاء المسلم وحجته على نفسه الضعيفة، وذلك بتسليم الأمر في أوله وفي آخره لله عز وجل.

وتنوع حديثهما في تلك الظهيرة، ومن وادٍ إلى وادٍ؛ لملء مساحة حالة الحزن التي طغت على يومهما؛ بسبب هروب ذلك الهندي اللعين، لتنقل الحديث أم تركي مع زوجها مباشرة عن (سلفتها) أم عبد الله زوجة أخيه الكبير، وعن موضوع خطبة ابنها (عبد الله) لابنتهم (موضي) بعد أن

منّ الله عليه بإنهاء الدراسة الجامعية وتخرجه، المتعلق قلبه بحب (موضي) وهواها، فسألته ماذا ستقول لها بخصوص هذه الخطبة؟

فلم يرد عليها بشيء، بل بالغ في الصد عنها، وترك المكان لها وحيدة في الصالة، وذهب لغرفته الخاصة؛ هروبًا من الجواب الذي تعرفه زوجته مسبقًا .. هرب كهروب سائقهم الهندي (كُومار)، فدخلت عليها (موضي) تحملُ بيدها كتابًا، لتأخذ جهاز الهاتف الذي يمتد سلكه لجميع الغُرف؛ لتوصيل خدماته الهاتفية، لتتحدث مع ابن عمها (عبد الله) بحرية كعادتهما بعد ظهر كل يوم، وبعد حديث طويل معه عن الدراسة في الكلية، وعن ماذا تلبس من ثياب جميلة؟ وعن نوع الغداء اللذيذ الذي يشم رائحته؟ وهل هو من طبخها أم من طبخ خالته؟، ثم ينتقل حديثهما عن فلسفتهما اليوميّة حول واقع هذه الحياة بين الحلم والأمنية، وبين الحقيقة والخيال، ويُقرُّ في نهاية حواره معها، أنه لن يحدث لهما إلّا ما كتب الله سبحانه وتعالى، ويروي لها قصة عن نوارس تلك العيون الجميلة الفاتنة التي تحلم في الليل والنّهار، وبصحبة قلب رقيق يتمنى على الله كل الأماني، والله كريم بعطاياه، ثم يفاجئها:

- أستغربُ من تأجيل عمي حفظه الله لخطبتنا يا موضي!! رغم أن أمي كلمت أمك منذ أسبوعين، ووعدتها خيرًا إن شاء الله .. بصراحة كأن العم يُماطل في الموافقة على الخطبة، كما شعرتُ من كلام والدي الذي

لمَّح لي أكثر من مرة بأن أبحث عن فتاة أخرى، فقال لي: صديقات أختك (سارة) كثيرات وجميلات .. أعرفهن يوم كن صغيّرات .. اترك الأمر لأختك؛ كي تختار لك واحدة من بينهن.

اسمعي يا موضي، إن عمي وأبي لا يعلمان مقدار حبنا لبعضنا البعض.

- يا عبد الله .. رجاءً (لا تُؤلم قلبي) .. أظن ما أعانيه الآن يكفي!! ألا يكفيني المشادة الكلامية التي وقعت يوم أمس بيني وبين أبي بخصوص هذه الخطبة .. لقد فتحت معه موضوع خطبتنا بحضور والدتي .. طلبتُ رأيه بصراحةٍ فيك، فاعتذر لي وقال: أريد منك الآن أن تُنهي الدراسة الجامعية .. لن أفكر بزواجك قبل تخرجك من الجامعة إن شاء الله، فالشهادة سلاح قوي بيد المرأة، ولن أفرط فيها، ولكني قاطعته، وشرحت له مقدرتي على الجمع بين الاثنتين، فتلكأ في مواصلة حديثه، ثم وضع كلتا يديه على وجهه، وذهب في رحلةِ صمتٍ لمجهول، لا أعلم ما هو، وخشيتُ في وقتها أنه ذهب في غيبوبةٍ دون عودةٍ للحياة مرة أخرى، فتركته مع والدتي؛ لتقوم بدور طبيب إسعاف الطوارئ لمثل هذه المواقف المحرجة، ولكني في هذه الليلة إن شاء الله عازمةٌ على إنهاء هذا الصراع يا عبد الله.

- يا موضي .. ربما والدكِ وعد عائلةً معينةً بزواجكِ لابنهم دون علمكِ، هو مُحْرَجٌ أمامكِ وأمام عهده ووعده لهم!! لظنه أن مثل هذا

الوعد التزامٌ، وعليه الوفاء به كما جرت العادة في مفهوم بعض الرجال، الموروث من عهد الجاهلية.

- لا .. لا .. والدي ليس بهذا المستوى الهابط من الرجال، الذين يعطون وعدًا في زواجنا دون مشاورتنا والتفاهم معنا .. اطمئن يا عبد الله، وهل يُخامرك الشك لحظة واحدة أن ينحدر عمك إلى هذا الدرك من الهمجية؟!

- أجل .. ما معنى رفضه لابن أخيه؟

- يا عبد الله، موعدنا مساء هذه الليلة، أليس المساء بقريب؟ وعلي الآن إغلاق الخط؛ لأني أسمع والدتي تُنادي علي لكَيّ الملابس، فاليوم هو يوم مسؤوليتي، وإجازة ضرتي (منايرة).

ويأتي المساء كعادته في كل يوم، ولكنه في هذا المساء يزحف ببطءٍ شديدٍ لموضي، طاويًا بأطراف خيوط سجادته السوداء يومًا كاملًا بآلامه وآماله وأحزانه وأفراحه، حاجبًا أشعة أفق السماء المحمرة عن الأنظار .. جو (الصالة) تغشاه سحابة سكون تام .. لا تسمع فيها لأي صوت غير هدير أنفاس (موضي) مندفعةً إلى رئتيها بقوة .. يدخل عليها والدها (أبو تركي)، فتقف لتستقبله كعادتها، مرحبة بطلته، مقبلة مقدمة رأسه، ثم ظاهر يده اليمنى في ودٍّ وتقدير واحترام .. تُقدم له فنجانًا من القهوة بعد أن تناول بعض التمرات من إناء كان موضوعًا فوق طاولة زجاجية

صغيرة كانت أمامه .. يهز الفنجان لها، بعد أن شفط ما فيه من قهوة .. فجر والدها الصمت الذي فرض وجوده في الصالة، بسؤاله الذي عادة ما يبدأ حديثه به مع بناته:

- ما أخبار الجامعة يا دكتورة موضي؟

- بخير - والحمد لله - يا أبي، طالما رأسك يشم الهواء، وكل ما تتمناه على ما يرام إن شاء الله.

- ابنتي موضي: أعرف سبب وجودكِ الآن، أعرفُ حُبك لعبد الله وحُبه لكِ، يا ابنتي الغالية .. لكن ..

ولاذ بالصمت من جديد .. بدأ يتكلم بهمس بينه وبين نفسه .. هل أقول لها حقيقة (عبد الله)؟ أنه ابن الكرتون؟ هل أقول لها: نحن لا نعرف أهله ولا أصله ولا نسبه؟ هل أقول لها وجده أخي بعد صلاة الفجر مرميًّا في كرتون عند باب المسجد؟ فأخذه لبيته، وطلب من زوجته رضاعته مع ابنتها سارة المولودة حديثًا؛ ليكون أخًا لها في الرضاعة، بعد أن يئست زوجته (أم سارة) أن تنجب له مولودًا ذكرًا؟ فأسماه (عبد الله)، وفي وقتها باركت له هذا العمل الخيري، ودعت الله له بالأجر والثواب، هل أقول لها هذه الحقيقة وليكن ما يكون؟ كي لا تأخذ موقفًا مُعاديًا وتكرهني طيلة حياتها .. يا الله!! .. يا الله!! .. كيف وضع القدرُ هذا العبد الضعيف بين هذين القلبين المتحابين؟!

ثم وضع يديه على وجهه، مُغطيًا معظم صفحة وجهه عن الدنيا وما فيها، ذاهبًا بحريةٍ في غيبوبته المعتادة، عندما يُفتح مثل هذا الموضوع في حضوره.

(20)

في قيلولة ساخنة من أيام شهر حزيران، الذي يُنذر التّاس منذ بدايته بقيظ قادم لا يرحم؛ من لهيب حرارته، تأخذ فيه الشّمس موقعها الطبيعي في كبد السماء الصافية العارية من الغيوم، مستقرة فوق رؤوس العباد، فتعجز مبردات الهواء عن أداء عملها بالصورة المطلوبة، والإجازة السنوية للجامعات والمعاهد تطرق الأبواب .. وبينما كان (حسن) صاحب مغسلة (البراحة) مع يماني آخر (صديق له) منهمكين بتعليق قطعة قماش أبيض فوق واجهة المغسلة، طولها يتجاوز المترين .. كُتب عليها باللون الأحمر بالخط العريض: (المغسلة للتقبيل)، دون الإعلان عن سبب بيعها وتقبيلها، كما جرت العادة في أمثالها، بأن يُكتب: (بداعي السفر)، أو (لعدم التفرغ)، إذ بحسن يشاهد سيارة إسعاف الهلال الأحمر تمر مسرعة بقربهما، لعمق النافذ المؤدي لحارة

(الصالحية)، فيتوقف حسن عن مواصلة عمله، ويهبط مسرعًا من الدرج الذي كان واقفًا فوقه من أجل تعليق اللوحة، ويطل على ما في النافذ، فيشاهد سيارة الإسعاف التي توقفت قرب باص الجامعة، وأطفال متجمعون حول السيارتين، فيذهب ليستطلع ما الأمر، فعرف من الأطفال المتجمهرين في المكان دون أن يسألهم، بأن بنت (أبو تركي) سقطت مغشيًّا عليها عند عتبة باص الجامعة أثناء نزولها منه، فشاهد حسن الممرضين بملابسهم البيضاء، وهما يخرجان من منزل أبي تركي، حاملين معهم ابنته ملفوفة بعباءتها، بنقالة الإسعاف؛ ليذهبوا بها للمشفى المركزي، ولا يعلم من تكون بين الاثنتين، فكلاهما تدرسان في الجامعة نفسها، ولكن في كليتين مختلفتين، لذا كان عليه سرعة إخبار صديقه الوفي (ناصر) بهذا الأمر، فيغلق مغسلته بسرعة، بعد أن أنهى تركيب قطعة القماش على واجهتها.

حسن يعلم أن ناصرًا ينتهي عمله الساعة الثانية ظهرًا، فيذهب بأحد حافلات النقل الصغيرة لشارع العصارات، ويذكر حسن جيدًا موقع العمارة التي وصفها له ناصر سابقًا .. لقد طالبه ناصر بزيارته عدة مرات، ووعده حسن خيرًا، ولكنه لم يفِ بوعده ويُنفذ له زيارة واحدة، رغم وعد (ناصر) له بتذوق الطبخات الحجازية اللذيذة، مثل (المنتو) و(اليغمش) اللتين يُجيد طبخهما صديقه الحجازي الذي يُشاركه العزبة،

وعند مدخل العمارة، يشاهد أحد المصريين واقفًا عند البوابة بملابس النوم، وفي فمه سيجارة، وبيده علبة دخان وقداحة مذهبة، فعرف أنه بالتأكيد من سكان العمارة، وممنوع عليه التدخين في داخل شقته، كما تفعل بعض النساء بطرد أزواجهن المدخنين، فسأله حسن عن شقة صديقه (ناصر)، رغم علمه بأنها في الدور الثاني، ولكن الدور فيه عدة شقق، فخشي أن يطرق بابًا بالخطأ، فأخبره المصري أنها في الدور الثاني شقة رقم (5).

ضغط حسن على جرس الباب الواضحة معالمه، وقد لُصقتْ بجانبه قطع من صحيفة بيضاء اللون ومستطيلة الشكل، كُتب عليها بخط يد جميل وبقلم لونه أزرق عريض: (رجاءً رفقًا بي، أنا أسمع)، سمع حسن من داخل الشقة صوت كناري يُغرد بصوت هادئ وجميل، عادة يسمع مثل هذا الصوت في المسلسلات المصرية والكويتية، فَتحَ له الباب شابٌّ تجاوز منتصف عقده الثاني، لم يسأله السؤال المُعتاد: من بالباب؟؛ لمعرفة الطارق .. زين وجهه الدائري (بسكسوكة) شبه دائرية، شعرها خفيف .. وضع فوق طرف أنفه نظارة قراءة صغيرة جدًّا، تركها تتدلى بحرية، فقال حسن:

- مرحبًا، هل هذه شقة ناصر؟

- نعم، تفضل، أهلًا وسهلًا.

دخل حسن الشقة، يسبقه مضيفه، يُشير بيده لمكان جلوسه، فرمى نفسه على (الكنبة) القريبة منه منهكًا، وبدأ يجول في نظره بمكونات العزبة المتواضعة، التي ليس كما بالغ في وصفها له (ناصر) على أنها عزبة خمس نجوم في الرياض .. شاهد بداية مجلس الاستقبال الذي أجلسه فيه (يوسف)، شريك (ناصر) في العزبة .. انتثر فيه طقم ونصف من (الكنب) الجلدي ذي اللون البني، وزُين جداره بورق جدران لمناظر طبيعية غربية، لا تمت لتراث الجزيرة وأهلها بشيء .. يتوسط الصالة طاولة مربعة كبيرة، بواجهتها مرآة زجاجية عاكسة، فوقها مجموعة من المجلات والجرائد المبعثرة، وشاهد مطبخهم الذي يفتح على الصالة مباشرة بدون باب؛ تقليدًا للطراز الغربي، ثم ممر ضيق وقصير، فيه ثلاثة أبواب متشابهة في الطراز والديكور، صبغت باللون الأبيض؛ لتتناسب مع لون جدران الشقة المصبوغة باللون الأبيض الزيتي .. يخرج ناصر من الباب الأوسط، واضعًا (منشفته) ذات اللون الأزرق فوقه رأسه، ويمسح في طرفيها وجهه بعد حلاقة ذقنه، فعرف أن الباب الأوسط يؤدي لدورة المياه الوحيدة في الشقة، أما البابان الآخران المتقابلان، فظن أنهما لغرفتين؛ أحدهما تخص صديقه ناصر، والأخرى ليوسف الحجازي الذي

يُشاركه السكن .. فرح ناصر كثيرًا بقدوم صديقه حسن، عندما شاهده جالسًا في صالة الاستقبال، وشكر لصديقه يوسف حُسن استقباله لِحَسَن، رغم أنه كان متعبًا بعد عمل يوم شاق في المصرف، ويُريد أن يستمتع بقسطٍ من الراحة قبل ذهابه للمؤسسة الواقعة في نهاية شارع (الوزير)، التي يعمل فيها محاسبًا في الفترة المسائية، فيتجه نحو (حسن) ويحتضنه بحرارة، والفرحة تكاد تقفز من عينيه الجميلتين، ويُحاول بشدة تضييق بؤبؤيهما؛ لكي لا تجد الفرحة مجالًا للهرب من قلبه، ويقول له:

- أخيرًا فعلتها يا ابن اليمانية، وصدقت في الوفاء بوعدك، وجئت لزيارة عزبتنا .. فمرحبًا بأخلص صديق، وأفضل يماني على وجه الأرض.

- مرحبًا بك يا أفضل سعودي في الجزيرة العربية، نعم فعلتها، والظروف هي من قادت خطواتي إليك يا أبا بدر.

- سلامات أبا علي؟ عسى ما شر يا رجل؟

- ممكن نتحدث في غرفتك لو سمحت؟

- أبشر، وبداية أعطني فرصة خمس دقائق لعمل (براد) شاي من (توليفة) عزبة شارع (العصارات)، شاي من فئة الخمس نجوم؛ احتفاءً بزيارتك الكريمة.

- رجاء لا تتأخر .. فليس لدي وقت طويل للجلوس معك، عليّ العودة للمغسلة بأسرع وقت ممكن، فأنت تعرف بعض الزبائن تحتاج لملابسها بعد صلاة العصر مباشرة، بعضهم يأتي لنا في (السروال) الطويل و(الفانيلة)، ويرتدي الثوب عندنا في داخل المغسلة.

في غرفة (ناصر) الخاصة، رشف (حسن) قليلًا من الشاي الساخن جدًّا من الكأس الصغير، الذي وضعه (ناصر) أمامه فوق طاولة خشبية صغيرة، بعد أن نفخ فيه عدة مرات؛ من أجل تبريده، واحتار كيف يبدأ حديثه معه، وينقل له المعلومات الخاصة بعشيقته (منابر) وأهلها .. لا يُريد أن يُفاجئه مباشرة بمعلومة مزعجة، فقرر أن يبدأ حديثه عن رحلة عودته لليمن قريبًا، أخبره بأنه عازمٌ على العودة لأرض الوطن وتصفية حسابه مع من وعده بالزواج من حبيبته (سعاد)، الذي علق على هذا الوعد الأمل الكبير، بعد أن اقتص حقه من المجرم قايد كاملًا، أخبره بأن مغسلته الآن معروضة للتقبيل، وينتظر مشترٍ مناسب لها في أقرب فرصة، وحكى له قصة سكنه في المغسلة، بعد أن اقتطع الجزء الخلفي منها بستارة وجعلها عزبة له، بعد سلسلة من الخلافات مع أبناء عمومته (قايد) و(قاسم)، لدرجة أنها وصلت للضرب بالأيدي فيما بينهم، وهما اللذان ضيّقا عليه خناق طرده من العزبة، بظنهما أنه كان

سببًا مباشرًا خلف إيجار داود ورفاقه عزبة (منفوحة) الواقعة فوق المخبز مباشرة.

يتحدث حسن بحماس وجدية، وناصر منصت له بكل مشاعره وأحاسيسه، دون أن يتفوه بأية كلمة كتعليق على قوله، ينتظر القادم خلف هذه المقدمة البطيئة، ثم يواصل حديثه حسن فيحكي رؤيته لسيارة إسعاف تابعة للهلال الأحمر، وقفت عند بيت (أبو تركي) ظهر هذا اليوم، ونقلوا فتاة بعد تعثر أقدامها عند نزولها من باص الجامعة، ولا يعلم من تكون التي نُقلت في سيارة الإسعاف، وذهبوا بها لمشفى (الشميسي) القريب منهم، فطمأنه (ناصر) بأنها ليست حبيبته (منار)، فمنار كانت معه صباحًا في الهاتف قبل ذهابها للجامعة، فربما تكون أم تركي التي تعبت صحيًّا، بعد سماعها خبر زواج (أبو تركي) عليها بشابة صغيرة في عمر ابنتها، واستأجر لها منزلًا في حارة (منفوحة)، بعيدًا عن تلصص عيون معارفه وأقاربه في حارة الصالحية، ولكن (عبد الرحمن) فضح أمره، وكشف سره، عندما شاهده يتردد على جامع (طلحة) في حارة (منفوحة)، فاستغرب من وجوده، وعندما سأل من يثق به من جماعة الجامع عنه أخبروه بزواجه قبل عام على زوجته الأولى التي تسكن بعيدًا عنه في حارة (الصالحية)، فأفشى سره بين أعضاء العزبة، وتكفل (داود) بنقل هذا الخبر لابنه تركي، الذي قام بإخبار والدته

بسرعة دون تردد، فانزعجت كثيرًا من هذا الخبر، وبدأت تصرخ وتُولول، وتدعو عليه بالموت والخلاص قريبًا.

أو ربما يا حسن تكون أختها (موضي)، التي تعيش في أزمة قلبية ملتهبة مع والدها، الرافض لزواجها من ابن عمها (عبد الله)، دون ذكر سبب مقنع لهم، رغم تدخل ابنه الوحيد تركي وانزعاجه من تصرف والده حيال ابن عمه، الذي زكاه له بأخلاقه الراقية وجميل طبعه وحسن معاشرته، وهذا ما يجعلني أتشاءم كثيرًا من التقدم لخطبة منابر في الوقت الحاضر، منتظرًا ابن عمها أن يحسم موضوع خطبته لموضي أولًا، وبعد صلاة العصر سأتصل على (منابر)، وأطمئنك بمكالمة على هاتف المغسلة إن شاء الله، وشكرًا لك أبا علي على هذه المشاعر الأخوية الراقية.

ودع ناصر صديقه حسن، وقلبه مضطرب غير منتظم في دقاته، يكاد ينطُّ من قفصه الصدري؛ لعدم توازن ضرباته، بالرغم من صحة وصف تبريراته لصديقه حسن، وتأكيده له بأنها ليست حبيبته (منابر).

ينزع فيش جهاز الهاتف الأخضر (ذا الأزرار) من مكانه في الصالة الرئيسة؛ لينفرد به في غرفته الخاصة .. يتصل على منزل (منابر) للاطمئنان عليهم بعد سماع هذه الأخبار، وبعد الرنة الأولى يُغلق جهاز الهاتف، كما جرت العادة بينهما، وينتظر رنة جهاز هاتفه باتصال منها الذي تأخر كثيرًا، وشغل تفكيره تأخرها عن الاتصال به، وبدأ يختلق لها

الأعذار الكثيرة؛ تبريرًا لأنفاسه المخنوقة في صدره .. ينظر لعقارب ساعته المذهّبة الراكضة بسرعة خلف بعضها البعض دون تريث وانتظار، غير مبالية بمن ينظر إليها بحزم أو ينتظر دقائقها، رغم لدغات عقاربها وسرعتها الموجعة له، ويعلم ناصر جيدًا تأخره عن وقت الحضور في دوامه بالمؤسسة التي يعمل بها مساءً لمدة أربع ساعات؛ لذا وجد نفسه مضطرًّا للاتصال مرة أخرى بها؛ فربما كانت بعيدة ولم تسمع صوت جرس جهاز الهاتف، أو ربما ذهبت معهم للمشفى كمرافقة لأمها أو لأختها، وطال انتظاره واقفًا عند جهاز الهاتف وهو ينظر لشاشته الصغيرة بشغف، الذي رفض أن يرن جرسه، وبدأ القلق يدب بصمتٍ في نفسه، ويتسرب الشك لأعماق تفكيره، وعرف وقتها أن الحُبَ وَهنٌ، ولا يصلح إلا للأقوياء، فقرر عندها الاتصال على (منابر) للمرة الثالثة والأخيرة قبل خروجه من العزبة، وبعد اتصاله الأخير مباشرة سرعان ما انتفض جهاز الهاتف أمامه بصوت رنينه، فينظر لشاشته، فيُشاهد رقم هاتف منزلها الذي حفظه غيبًا، فيرفع سماعته قبل أن يُنهي جرسه دقته الثانية، فرحًا ومتلهفًا لسماع أخبارهم؛ كي يطمئن عليهم:

- سلامات منابر!! لماذا تأخرتِ في الاتصال؟

- السلام عليكم ناصر .. عفوًا أنا (موضي)، لست (منابر).

- أجل أين أختكِ (منابر)؟

- تَعبتْ اليوم عند عودتها من الجامعة، فسقطت عند نزولها في عتبات (الباص) مغشيًّا عليها، فاتصلنا بالهلال الأحمر، الذين نقلوها بسرعة لطوارئ مشفى (الشميسي)، وبرفقتها حاليًا والدي ووالدتي.

فيُغلق سماعة جهاز الهاتف، دون الاستئذان من موضي؛ لشدة هول صدمته، ولعدم تصديقه ما سمع من خبر مفاجئ منها، واستغرب كثيرًا؛ فصباح اليوم كان يتحدث معها، وكانت ضحكاتها تملأ فمها، وتشق له سمعه عبر سماعة جهاز هاتفه .. بدأ يستعد في كيفيّة الوصول إليها للاطمئنان عليها، وشغل تفكيره لماذا قالت له أختها (موضي) بأن والديها معها في قسم الطوارئ؟ هل أنّ في الأمر خطورة لهذه الدرجة؟ أم أنها كانت تُريد منه أن لا يتهور ويذهب لرؤيتها هناك؟ ولكنه أخيرًا قرر عدم الذهاب للمؤسسة، فرفع سماعة جهاز الهاتف، واتصل بمدير المؤسسة، يستأذن منه، وعزم الذهاب لرؤيتها، فاستبدل ثيابه، ورش كمية غير قليلة من عطر (أرامس) الذي يعشقه على وجهه وثيابه، وتوجه للمشفى، وكان مستغربًا من أين أتت له هذه العزيمة وهذه الجرأة؟ فدخل مبنى قسم الطوارئ، يجول ببصره بين أسرة المرضى المحجوزة عن رؤية الزوار بستائر متحركة بيضاء اللون، محاولًا - قدر استطاعته - أن يسترق السمع من خلف هذه الستائر المرتفعة، فسمع أبو تركي وهو

يتحدث بصوت خافت جدًّا لزوجته (أم تركي)، ويقول لها: لقد تركنا البنات لوحدهم في البيت، فترد عليه بأن الله هو الحافظ سبحانه، وأختهم الكبيرة (موضي) معهم، فعرف مكان وجودها ورقم سريرها، فعليه الآن أن يجد مقعدًا مناسبًا له خارج قاعة الطوارئ؛ لمراقبة المكان من بعيد، منتظرًا فرصة خروجهما من صالة قسم الطوارئ.

شاهد ناصر أبا تركي يخرج من قسم الطوارئ، ويتجه نحو موقف السيّارات، فعرف أنه سيغادر المشفى، فلم يبقَ بجوارها أحد غير أمها التي سترافقها في الليل كما يبدو، التي بدأت تمسح عن عينيها بقايا دموع سالت على خديها، فجلس (ناصر) طويلًا على أحد المقاعد الحديدية الثقيلة، الموضوعة في الممر الرئيس القريب من صالة قسم الطوارئ، يراقب خروج أمها من قسم الطوارئ، في أية لحظة لقضاء حاجة لها، وتبدو على ملامحه علامات الوهن والتعب والانكسار .. كان مظهره الخارجي يُجسد استسلامه الكامل للهزيمة النفسية، وكانت عصافير الذكريات تتداعى أمامه، تومض وتختفي سريعًا في فكره، كوميض فلاش آلة التصوير عند التقاط صورة في غرفة تُعاني من فقر في الإضاءة.

غريبٌ جدًّا أمر العقل البشري، الذي يمتلئ بعدد كبير من صور الذكريات، لا يمكن لنا إحصاؤها أو جردها، مخزنة في مستودعه

الأمين، ولكنه مع الأسف لا يجلب لك إلّا تلك الذكريات التي تظن أنك نسيتها، أو تلك التي تُحاول نسيانها، وكأن العقل البشري لا همّ له ولا هدف لديه غير جلدك بسوطه المؤلم، وتنغيص عليك هنائك، ونسيانك لما حدث.

وتم لناصر ما أراد، عندما رأى أمها تخرج من باب قاعة الطوارئ، قاصدة باب دورة المياه، فذهب مسرعًا لسريرها، فنظر إليها بقلبٍ واجم، فشاهدها في قميص المشفى ذي اللون الأزرق الفاقع، محاطة بمجموعة من الأسلاك الملونة والأنابيب الشفافة من كل جانب، تجري فيها السوائل، غُرست إبرها الحديّدية بين خلايا جلد ظاهر يدها الناعمة الرقيقة، وشاهد كمامة الأكسجين الشفافة التي غطت أكثر من نصف وجهها الدائري، وجهاز قياس ضربات القلب، مع نسبة كمية الأكسجين في الدم، اللذين يعملان بحيوية وإتقان، ومؤشر شاشة الحياة بألوانه الخضراء يرتفع ثم يهبط، وجهاز قياس درجات الضغط، ومؤشر نبضات القلب، الذي يُشير لهبوط مستمر في القياس!!

شاهد ناصر عينيها المغمضتين، بعيدتين عن الحس البشري، وعرف أنها بعيدة عن الشعور بمن حولها .. إنها في رحلة غيبوبة، لا تُدرك محطتها الأخيرة، وشاهد شعرها الأسود الطويل، المتناثرة خصلاته حول رأسها على وجه الوسادة البيضاء، فخرج مسرعًا قبل عودة أمها، ويده

تُغطي نص وجهه الذي انحسر عنه الدم من هول ما شاهد، وقلبه ينقبض ألمًا وحسرةً عليها.

(21)

يرن جرس جهاز الهاتف في عزبة شارع (العصارات) صباحًا عدة مرات، قبل شروق الشمس في مدينة الرياض، وقبل وقت الدوام الرسمي لناصر، والمتصل مصر على أن يرد عليه أحد في الطرف الآخر، فينهض ناصر من سريره بخمول وتكاسل، فيخرج من غرفته متعثرًا في مشيته، بعد أن عرف إصرار المتصل عليهم، مُحدثًا نفسه: (لعله يكون خيرًا إن شاء الله)، ينظر في شاشة كاشف جهاز الهاتف الصغيرة، فيتعرف على رقم صاحبه (حسن) اليماني، فيعرف بأنّه متصل عليه كي يُودعه قبل سفره، وبالتأكيد قد باع المغسلة، وستكون هذه المكالمة الأخيرة له، فيرفع السماعة ببطءٍ شديد، شاقًّا على نفسه مجاملته بمثل هذا الوقت كعادته، مرحبًا به ترحيبًا يليق بمقام صحبته ومحبته، فيرد عليه حسن التحية بأفضل منها، ويخبره بصورة مقتضبة عن رؤيته لزحمة سيّارات تقف

قرب منزل (أبو تركي)، ولا يعلم لماذا، فشكره (ناصر) وأكد عليه ضرورة رؤيته قبل سفره لوداعه.

استبدل (ناصر) ثيابه في عجل، ووضع (طاقيته) البيضاء فوق مؤخرة رأسه، وترك (العُقال) ثابتًا فوقها، أما (الغترة) فرماها على كتفه الأيسر، ووضع ساعة يده في جيبه الجانبي الطويل، فليس لديه الآن الوقت الكافي ليقف أمام المرآة لإلقاء آخر نظرة على هيئته الخارجية .. ذهب مسرعًا للمشفى القريبة من عزبة شارع العصارات، وفي قاعة قسم الطوارئ شاهد سريرها فارغًا .. لم يجد (منایر) فيه، فانتابه الرعب والخوف من خلوه، وهون على نفسه بظنه أنها نُقلت لقسم آخر، ولكن عندما سألهم عنها، قالوا له لقد تُوفيت فجر هذا اليوم رحمها الله، بعد أن صارعت مرض سرطان الدم، فجف ريقه، وظن أن دقات قلبه توقفت لحظات، غير مُصدق ما سمع من خبر، فجلس في أقرب كرسي كان موجودًا بجانب سريرها الفارغ؛ ليستجمع قواه العقلية والنفسية، فكيف في يومين تدخل قسم الطوارئ ثمّ تموت؟! وكيف تكون مصابة بسرطان الدم ولم تكن تعلم؟!

قاد ناصر سيّارته الخاصة لحارة الصالحية مترنحًا في قيادتها بين الحقيقة والحلم، وصل للحي حين قارب النهار منتصفه، ولأول مرة يدخل نافذ ذلك الحي منذ أن هجره .. شاهده كما كان في تلك الأيام

الغابرة، لم يتغيّر فيه شيء .. فالحفر الكثيرة التي كانت تعرقل سير السيارات لا زالت موجودة، وذاكرة الحي بالنسبة له لا زالت عامرة بنبضها، حفظت له معالم تلك الصور الجميلة .. ركن سيارته قرب مغسلة (البراحة)، وتوقف عند (حسن) قليلًا؛ ليستعيد أنفاسه المتعبة، فعرج على بقالة (يس)؛ للسلام على صديقهم القديم (قايد)، ثمّ سار مشيًا لمنزل منایر، فشاهد تركي واقفًا عند الباب يستقبل بعض ضيوفهم القادمين من داخل وخارج المدينة، الذين جاءوا ليواروا جثمان حبيبته (منایر) الثرى بعد صلاة العصر في مقبرة (العود)، فطلب منه تركي أن يدخل للمجلس؛ لمواساة والده المتأثر كثيرًا بوفاة أخته منایر، فدكتور الطوارئ ألقى اللوم عليهم بعدم الاهتمام بأعراض مرض السرطان، فلم يتم فحصها مبكرًا لتجنب انتشاره في دمها بدايةً، والقضاء عليه لاحقًا، فأعراضه كانت واضحة عليها من خلال وصفهم لحالتها الليليّة، وهذا هو حالنا دائمًا حين تُداهمنا الأمراض، وتبدأ أجسادنا بالشكوى، فنحاول أن نغض الطرف عنها؛ فلعل هذه الأمراض تُعالج نفسها، وتشفي ذاتها، أو لعل الأعراض تختفي وتزول بدون إزعاجنا بفحوصاتها.

ومن بين زحمة الجالسين، يلمح ناصر في المجلس ابن عمها (عبد الله) قابعًا في أحد الزوايا، يعيش أزمته الاجتماعية بمفرده، مطأطئ الرأس، ينظر للأرض منكسر القلب، يُحاول أن يُخبئ رأسه عن الدنيا

وما فيها، الذي قام بسرعةٍ من صومعته المعتكف فيها؛ ليحتضن ناصرًا عندما رآه داخلًا عليهم، فمنذ فترة طويلة لم يلتقيا.

وفي العصر ذهب ناصر معهم للمقبرة، وطلب من صديقه تركي أن يركب معه في سيارة الإسعاف التي ستنقل جثمانها للمقبرة؛ بحجة أن يقف بجواره في هذه الأزمة، ولكنه في الحقيقة لا يُريد أن يفارقها حتى في ساعاتها الأخيرة قبل أن توارى في التراب. وبعد دفنها ظلت عيناه مسمّرة على ذلك القبر الذي ابتلعها، يقف ناصر ينظر لقبرها، بينما انشغل البقية بتأدية الواجبات الإنسانية للأحياء، فيُعزي بعضهم بعضًا، ويحضنُ بعضهم بعضًا، ويُواسي بعضهم بعضًا بوجوه ترتسم عليها علامات الحزن والكآبة، دون أن يلتفت أحد إلى ذلك القبر، ولا لمن يقف قربه صامتًا في ذهول كالصنم، يقف بكل جرأة أمام أعينهم بجانب قبرها، وليس في قلبه خوف منهم، وقد اختفى خوفهم عليها منه.

وبعد مراسم عزاء المقبرة، عادوا كلهم ما عدا ناصر، الذي ظل منسيًّا عند قبرها، يُرتل بعض الأدعية، ثمَّ بدأ في مناجاتها .. كان في ذهول بداية وهو يراقب تلك الحبيبة محمولة على أعناق الرجال المسرعين في خطاهم، وكأنها حملٌ ثقيل على أكتافهم، يُريدون التخلص منها بسرعة، برميها في الحفرة الضيقة المخصصة لها، فلم يجرأ ناصر أن يمد يده ليحملها معهم

لقبرها، واكتفى بالسير خلف موكب جنازتها المفزع، فقد كان يحلم بينه وبين نفسه بأن يطوق خصرها بيده، ويدور بها في أرجاء عشهم الهادئ؛ ليريها إياه غرفة غرفة، وقد رتب كافة تفاصيله حسب ذوقها، كان يسير خلفهم بهدوء مشوش، ينعق في ساحته ألم الفراق، حتى أنّ الدموع لم تسعفه، فقد أبت أن تسيل أنهارها، وكأن في داخله شيئًا يرفض التصديق بأنه اليوم سيدفن نصفه الآخر، ليعيش مبتورًا بقية حياته، سيدفن حلمه الذي خطط له، وحبه الوحيد في حياته، ويا لشدة ذهوله حينما أدار الجميع ظهورهم عنها، ورحلوا بعد انتهاء مهمتهم التي انتهت بنثر التراب عليها، ثمّ رش الماء فوق قبرها، وختموها بكلمات متناثرة من الدعاء لها بالثبات عند السؤال، ثمّ وضعوا قطعة (طين) جافة كبيرة كشاخص رسمي على قبرها.

وقف بلا حراك أمام قبرها، ثمّ هوى دون شعور على ركبتيه جاثيًا قُرب رأسها، فأجهش بالبكاء المكتنز في قلبه، كيف نتركها هنا وحيدة إذا جن عليها الليل؟! أعرفها جيدًا كانت تُحدثني عن خوفها من ظلام الليل وسواده، وراح ينعي نفسه، ويمسح بباطن كفيه على ظهر قبرها، ويناديها بصوت هامس؛ لعلها تسمعه فلا تخاف الظلمة، أو أنها تعود للحياة من جديد، فالأموات يسمعون (قرع النعال)، كما حدثنا المصطفى ﷺ، فمن باب أولى أنهم يسمعون أشجان الدعاء وصوت الحديث والنجوى،

ولكن ليس بأيديهم شيء، وهيهات أن تستطيع الرد عليه، أو على غيره من البشر .. صفحة من صفحات الحياة طُوي قيدها.

(22)

لم يتمكن ناصر من حضور حفل تخرج الطلبة، الذي تُقيمه إدارة جامعة الرياض سنويًّا لطلبتها المتخرجين في الصالة الرياضية بمنطقة (الدرعية)، فاعتذر لكل من داود وسامي وحامد عن حضوره الحفل، وقدم إجازة اضطرارية من العمل لمدة أسبوع كامل .. حاول حسن مرافقته في سكنه؛ كي يتجاوز صديقه هذه الأزمة النفسية التي يمر بها، لكن ناصرًا رفض، واعتذر منه؛ بسبب مشاركة زميله الحجازي (يوسف) في العزبة.

هنأ ناصر جميع أصحابه هاتفيًّا على تخرجهم، ونيلهم لدرجة البكالوريوس، وكرر اعتذاره لهم على عدم مشاركتهم هذه الفرحة العزيزة الغالية على النفس، وعَلِمَ من داود أنه وجد وظيفة له في شركة (أرامكو)، وسوف يُسافر للمنقطة الشرقية قريبًا، هاجرًا الرياض وذكرياتها، وسيُقيم

في عزبة السكن الداخلي للشركة في منطقة (الظهران)، وباركَ ناصر لحامد الذي قضى معظم وقته في العزبة بقراءة الجرائد اليوميّة، يبدؤها عادة بالصفحات الرياضية، ثم ينتقل مباشرة للصفحات الأخيرة منها، لدرجة أن أعضاء العزبة أسموه بالرجل (المُعقد)؛ نظرًا لشدة حبه للقراءة، فلا يُكثر الجلوس معهم، ولا يحب الاختلاط مع من يأتي ضيوفًا للعزبة، وينسى نفسه إذا دخل بين السطور في عالم القراءة .. يقرأ كل شيء مكتوب على الورق الذي يقع تحت بصره، ولا يمل القراءة مطلقًا، وكثيرًا ما يواصل قراءته لصفحات الجرائد المفروشة على الأرض كسفرة للأكل، رغم انتهاء أصحابه من الأكل، فيتركوه وحيدًا عند السفرة يواصل القراءة من صفحة الجريدة المفروشة .. أخبر ناصرًا بأنه وجد عملًا مناسبًا له في شركة (بكتل) بمدينة (الجبيل) الصناعية .. وعلم من سامي بأنه سيواصل دراسته العليا في أمريكا بعد أن حصل على درجة الامتياز ومرتبة الشرف في الكلية، وأخبروه أن (عبد الرحمن) سافر لمكة المكرمة، وسجل في كلية الشريعة، بعد أن أكمل دراسة دبلوم المعهد العلمي.

وهكذا هي الحياة، مثلما جمعتهم بدون موعدٍ سابقٍ، تأتي إليهم مرة أخرى - وبكل وقاحةٍ وجرأة، وبدون حياء - لتفك عقد هذه الشراكة المؤقتة؛ ليسير كل منهم في خارطة طريقه الخاص الذي كتبه الله له .. كل منهم نال نصيبه من هذه العشرة الطيّبة الذكر، (وكل إنسان ميسر لما

خُلق له)، فيهجرون عزبة (منفوحة) دون عودة لها، فتُصبح خاوية على عروشها، كأن لم يكن فيها ذلك الحس الأخوي الجميل، وتلك الصراعات المُرة الكثيرة مع (قاسم) وأبناء عمومته.

(23)

بعد موت حبيبته (منايز)، ودفنها مع ذكرياتها المؤلمة في مقبرة العود، وسفر كل أصحابه بعيدًا عنه، تاركين المدينة التي نهلوا منها العلم والمعرفة والثقافة، ونالوا فيها الشهادة التي تؤهلهم للسعي خلف رزقهم الذي كتبه الله لهم، حتى صديقه الوفي (الزيدي) حسن، فقد سافر لليمن بعد بيعه لمغسلته بسعر زهيد، وذهب في رحلة تصفية حسابات عاطفية، لا يعلم مدى نهايتها إلّا الله سبحانه، فهدفه من الحياة اقتصر على الانتقام، ما وجد إلى ذلك سبيلًا.

فتعاقبت على ناصر الأيام مملة وكئيبة وبطيئة، ومثقلة بالسأم والهموم، يهجم الحزن على قلبه بضراوة من كل الجهات، ويضيقُ صدره بالوحدة التي يعيشها، ويُشمر ألم فراق الأصحاب والأحباب عن ساعديه بقوة، ويُضيّق الخناق على مسار حياته اليوميّة، فتكون مدينة الرياض

التي عشقها أمام عينيه كصحراء قاحلة، وكأنها مدينة غريبة، لا يعرف منها شبرًا، فيئس من رحمة العباد، لولا الدعوة التي تلقاها من صاحبه (عبد الله)؛ لحضوره عقد قرانه بموضي في نهاية الأسبوع، بعد أن رق قلب والدها لهما، فوافق على زواجهما مكرهًا، فمثل هذا الخبر أثلج صدره كثيرًا، وأدخل السعادة والسرور على قلبه، وكم تمنى لو أن ينال مثل هذا الحظ مع حبيبته (منايز)!

ثمَّ يأتي إليه الفرج والسعد من رب العباد سبحانه، ودون مقدمات، ومن قلب محنة الابتلاء تأتي إليه منحة رب الأرض والسماء، وكأن في حياته ممر سري لا يُفتح بابه إلّا بعبور هذا النفق المظلم الذي سار فيه، تأتيه البشرى من إدارة المصرف الذي يعمل فيه، بإرساله مع بعض الموظفين المميّزين بعثة لأمريكا؛ لدراسة الأعمال المصرفية، فيقبل عرضهم مترددًا، بسبب إصرار إدارة المصرف لتوقيعه على تعهد للعمل معهم لمدة ثلاث سنوات متتالية بعد تخرجه من أكاديمية (تشيزمنهاتن) المصرفية في (نيويورك).

ومن باب الدعاية للمصرف، يتم الإعلان في جريدتي (الرياض) و(الجزيرة) عن قيام إدارة المصرف بإرسال عدد من موظفيه بعثة لأمريكا؛ من أجل الدراسات العليا في بعض التخصصات المصرفية المعاصرة.

وبينما كان ناصر يُرتب أوراقه، ويجمع حاجياته الخاصة في مكتبه بالمصرف ليأخذها معه، في يوم تسليم ما في عهدته لأحد الموظفين الذي سيخلفه في منصبه خلال فترة سفره؛ كي يستعد ناصر للسفر؛ من أجل السلام على والدته وأهله بداية، يرن جرس جهاز الهاتف الأسود الذي فوق مكتبه الجانبي، المثقل بعدد من أجهزة الهواتف الملونة، فيتردد في الرد عليه خوفًا من أن يكون أحد عملاء المصرف، ولا يُريد أن يتحدث معهم، فطلب من زميله الموظف الرد عليه كبداية لمسؤولياته التي يجب أن يُمارسها منذ اللحظة:

- نعم.

- السلام عليكم، أرغب في التحدث لناصر (....)، لو سمحت.

- عليكم (الثلام) والرحمة، لحظة من فضلك.

فنظر لناصر بابتسامة هادئة، كشفت عن سقوط بعض أسنانه الأمامية؛ بسبب داء (السكر) المبكر الذي تعرض له؛ مما سبب له مشكلة مع بعض الحروف، وكان يتجنب بعض الكلمات التي فيها حرف (س) و(ش) و(ص)، فقال له إنه لك (ثخثيًّا)، طلبك (بالاثم)، ولقد وقع ما كنت تخثاه يا (ناثر)، فتناول السماعة منه:

- أهلًا وسهلًا، معك ناصر.

- مرحبًا بك يا ناصر، كم أتعبتنا حتى وجدناك!!

- أستغفر الله يا رجل، لماذا؟ وماذا حصل؟ ومن يتكلم معي لو سمحت؟

- حكاية طويلة، أختصرها لك هنا في الهاتف، وسوف تسمع تفاصيلها عندما نلتقي بك في دُبي إن شاء الله.

- ماذا تقول؟ عفوًا من معي بالله عليك؟

- معك (صالح شاهين)، من مكتب (الدريهميّة) القانوني من (دُبي) في دولة الإمارات العربية.

- مرحبًا بكم، وأهلًا وسهلًا بأهل دُبي، ولكن أنا لا أعلم أنّ بيننا وبين هذا المكتب القانوني أي تعامل مصرفي يخص الاعتمادات المستندية، أو أي ضمان يخص التأمين التجاري أو الشحن البحري .. لعلك تتحدث مع مدير الفرع على رقمه الخاص جزاك الله خيرًا.

- يا ناصر، الموضوع خاص بك أنت، وليس بالمصرف الذي تعمل فيه، وباختصار شديد خاص بوالدك رحمه الله تعالى؛ فقد كتب في وصيته الخاصة التي أودعها بمكتبنا القانوني قبل موته، أن لا نُوزع ثروته إلّا بحضور ابنه الكبير (ناصر)، المُقيم في السعودية، الذي هو أنت، ونحن منذ وفاته رحمه الله، أكثر من ستة شهور نبحث عنك، بين مدينتي

(الدمام) و(الرياض)، وشكرًا للمصرف الذي قام بالإعلان عن قائمة أسماء المُرسلين بعثة لدراسة الأعمال المصرفية في (أمريكا).

- ماذا؟ ماذا؟ ماذا؟ ماذا تقول أنت يا رجل؟ هل جننت؟ والدي تُوفي قبل ستة شهور وإخواني في أرض دبي!! غير معقول!! لا يمكن أن أصدق هذا الخبر!!

- نعم علمتُ من إخوانك أنهم لا يعلمون عنك شيئًا حتى ساعة قراءة الوصية التي تركها والدك، ولم يخبرنا نحن كمكتب قانوني عنك شيئًا، رغم أن كل مجتمعه يُناديه (أبا ناصر)، ولم يُشاهد أحد منهم ناصرًا، ولم يسمع أحد عن أخباره شيئًا، وأظنه كان متابعًا جيدًا لأخبارك أولًا بأول، ففي وصيته ذكر أنك مُقيمٌ في السعودية.

- كم هم إخواني؟ وهل عندي أخوات من أبي كذلك؟ وأين يُقيمون حاليًا؟ أرجو من الله أن لا يكون معي مقدم برنامج الكاميرا الخفية، وربما هم يعلمون عن شدة معاناتي، بفقداني لوالدي منذ أيام طفولتي، وأرجو من الله أن لا يكون هذا حلمًا جديدًا، من ضمن سلسلة الكوابيس الكثيرة التي أشاهدها كل ليلة، منذ وفاة الحبيبة الغالية (منايز) رحمها الله وغفر لها .. أشباحٌ من صورها الملونة الكثيرة تتناوب على زيارتي بين فترة وأخرى.

- يا ناصر، رجاء الآن اكتب العنوان الذي سأذكره لك، ودوّن أرقام هذه الهواتف، ولو سمحت تعال لدُبي في أقرب فرصة ممكنة؛ لتشاهد إخوانك وأهلك بنفسك، وتشرف على ثروة والدك مع باقي إخوانك.

(24)

من سُنن الأحداث عندما تنزل على البشر تكون سريعة التلاحق والهطول، وتكون أكبر من أن تُستوعب دفعة واحدة، لدرجة أن الإنسان يكون في وقتها بحاجة لسلام مع نفسه .. وسريعًا.

يُقلع ناصر من مطار (الرياض) إلى مطار (دُبي)، بدلًا من برنامجه المعد له مُسبقًا، بذهابه إلى مدينة (نيويورك)، ويضع في حقيبته اليدوية خارطة معالم مدينة (دُبي) الحديثة، بدلًا من خارطة (منهاتن) الأمريكية.

كان ناصر كثيرًا ما يسمع عن الإخوان، وعلاقة بعضهم ببعض، من غيرة وحسد وصراعات فيما بينهم، ومن علاقة ود وحمية وعطف وحنان واحترام، ولكنه لم يعش مثل هذه الأجواء المشحونة بالعواطف الإنسانية الدافئة في طفولته وشبابه؛ فلذا شغل تفكيره كيف سيتعامل

معهم بأسس ومبادئ أخوية، لا يفقه منها شيئًا وهو كبيرهم، وليس له تجربة سابقة في مثل هذه العلاقات الإنسانية.

يدخل (ناصر) صالة الاستقبال في مطار دُبي، ويجد في استقباله المحامي (صالح شاهين)، الذي عرّفه بنفسه بداية، وكان واقفًا بجانبه ثلاثة من الشباب، ينظرون إليه بابتسامة، تغشاها فرحة حضور أخيهم الكبير، هم أقل عمرًا منه، حاملين لوحة كبيرة كُتب عليها: (مرحبًا بك أخينا ناصر في بلدك)، وكان أصغرهم (مسعود)، يحمل باقة ورد جميلة، قدمها له وقت وصوله، يُصافح ناصر المحامي بحرارةٍ، الذي تولى تعريفه بأسماء إخوانه من الأب، بدءًا بكبيرهم (سعيد)، ثم الأوسط (سعد)، وأخيرًا صغيرهم (مسعود)، فيحتضنهم واحدًا تلو الآخر بفرحة مغتصبة من أوحال الشك والسؤال وعدم التصديق، وكل ما في داخل قلبه يُغرد بمعرفة حكاية والده، التي شاخت، فطواها الزمن في ذاكرته، وأكل فتاتها النسيان، ولكنه كان حريصًا على معرفة سر غيابه عنهم كل هذا العُمر.

وفي مجلس القصر الفخم، الذي كان والده يستقبل فيه ضيوفه من كل مكان، يجلس ناصر بهدوء منصتًا لقصة هجرة والده بشغف وتركيز، والتي كان يحكيها لهم المحامي (صالح شاهين): جاء مهاجرًا لجزيرة (دلما) من (البحرين)؛ لأسباب لم يطلع عليها أي إنسانٍ، ولم يُخبر بها أحدًا، لا

من قريب ولا من بعيد، جاء على متن سفينة نقل كبيرة، كانت قادمة من ميناء (البصرة)، متوجهة للهند، تحمل على ظهرها (التمور) العراقيّة، فتوقفت في ميناء (سلمان) بمدينة (المنامة) بالبحرين، فأفرغت جزءًا بسيطًا جدًّا من حمولتها، ثم غادرت لمواصلة خط سيرها، لتتوقف مرة أخرى في جزيرة (دلما)، أو جزيرة (اللؤلؤ) - كما يحلو لبعض أهل سكانها تسميتها، التي تُعتبر مركز التقاء وانطلاق لمعظم خطوط الملاحة العابرة لمياه الخليج العربي؛ بسبب وجود العدد الكبير من آبار مياه (الشرب) العذبة فيها، فاستقر (أبو ناصر) فيها لمدة تزيد عن العشر سنوات، عمل خلالها على خدمة وصيانة سُفن (الغوص) والتجارة، التي عادة تتوقف في الجزيرة؛ من أجل التزود بالمؤن التي تحتاجها، قبل مواصلة رحلتها الطويلة في عرض البحر .. في بداية أيامه الأولى في الجزيرة، تعرّف على اثنين من الرجال، كانا يعملان معه في الجزيرة، الأول منهما (مهري) اسمه (خلفان)، صغير الجسم، قوي البنية، ذو لحية ناعمة وطويلة جدًّا، يربطها من منتصفها بشريط أسود رفيع، أسمر اللون، مهاجر من (عُمان) بسبب ضغوط اجتماعية عصفت بحياة أسرته، لم ينبشْ عن أجواء مناخها أحدٌ، ورجل آخر قادم من منطقة (عربستان)، إيراني الجنسية عربي الهوية واللغة، ذو جسم ضخم جدًّا، جاء فارًّا من سطوة حكم شاه (إيران)، وتسلطه على رقاب العباد؛ بسبب انخراطه في

الأحزاب السياسية العلمانية التي تُنادي بسقوط حُكم (الشاه)، اسمه (لفتة).

اتفق هؤلاء الثلاثة فيما بينهم على استئجار منزل صغير؛ ليكون (عزبة) لهم، فوجدوا بيتًا صغيرًا في طرف الجزيرة، وكل من يسألهم عن سبب مجيئهم للجزيرة، يقولون لهم: طلبًا للرزق الكثير فيها.

جمعتهم هوية (الغربة) في هذه العزبة، التي أصبحوا يتواصون في برها ووصل رحمها، ويبحثون عن أماكن للترفيه عن أنفسهم، يتسكع فيها الفرح والنسيان، فذاكرة ماضيهم ممتلئة بالمآسي، يعتريها العنف والجفاف، وكل ما يخشونه في حياتهم عودة الذكريات المؤلمة المنسية يومًا ما، فهي كالطيور المهاجرة في طبعها، لابد لها من عودة لموطنها الأصلي، وقد عرفوا أن الظُلمَ يشوّه القلب بثقوب عميقة، لا تتماثل للشفاء لمجرد رقعها.

بعد أن استقر (أبو ناصر) في الجزيرة، تمكن من معرفة حاجة هذه السفن التي ترسو في الميناء، فاشتغل بتجارة (التمر) والماء، فكسب منهما خيرًا كثيرًا، وتزوج بعد عدة سنوات من إقامته بامرأة من أهل جزيرة (دلما) .. والدها كان يعمل (نوخذة) في أيام (الغوص)، وأهل جزيرة (دلما) لا يعرفون شيئًا عنه غير هجرته من أرض (دلمون)، فسيرته الذاتية تبدأ منها وتنتهي عندها، وليس له علاقات بأهله، وكأنه شجرة فريدة نبتت

في صحراء قاحلة لوحدها، تحت ظروف قاهرة وقاسية، ولكنها قاومت الطبيعة القاسية، فأينعت وأثمرت.

كان (أبو ناصر) يستورد (التمر) من خارج جزيرة (دلما)، وبعد انحسار تجارة اللؤلؤ، وقلة مرور السفن في الجزيرة، هاجر مع عائلته لدُبي، ونقل كل أملاكه لها، فاستأجر محلًّا في سوق التمر المشهور، بعد أن دفع مبلغًا كبيرًا كـ (خلو قدم) فيه، فذاع صيته بالسوق كثيرًا؛ بسبب خبرته السابقة في هذا المجال، ومعرفته الجيدة بأنواع التمور وتجارها، وقوة علاقاته الصادقة الأمينة الوفية مع كثير من التجار المُصدرين للتمور في كل من مدينة (الإحساء) بالسعودية، ومدينة (البصرة) بالعراق.

كل هذا الذي سمعه (ناصر) من العم (صالح) لا يهمه، ولا يعني له شيئًا، ولم يُؤثر في مشاعره، بما فيها هذه الثروة الكبيرة التي تركها لهم والده .. إنه يبحث عن سبب تركه لزوجته (أم ناصر) بدون ورقة طلاق، وتركها مع ابنها عهدة في ذمة الحياة، ونسيانه لابنه الرضيع وأهله ومجتمعه وحياته الخاصة في مدينته .. حتى العجوز (جدته) لم تسلم من لظى نار قطيعته، فقد تركها دون معيل بعد وفاة والده.

بعد أن أنهى المحامي (صالح شاهين) كلامه، التفت (ناصر) لإخوته؛ لعله يجد عندهم شيئًا عن ضالته المنشودة:

- وأنتم ماذا تقولون في سيرة والدنا؟

فبدأ كل واحد منهم ينظر للآخر، وكأنهم يحاولون تفويض أحدهم بالحديث عنهم؛ ليكون الناطق الرسمي لهم، فتكلم كبيرهم (سعيد) نيابة عنهم:

- لا أعرف أكثر مما سمعت الآن من العم (صالح)، ولم أكن أهتم كثيرًا بسيرة الوالد رحمه الله وعائلته، وجل معرفتي به أنه من أهل البحرين، رغم شدة استغرابي من عدم معرفة أحد من عائلة (المضارع)، على عكس عائلة الوالدة حفظها الله؛ فهم كثير، جعلونا ننسى سيرة عائلة الوالد، وحسب معرفتي بالوالد، له كثير من الأصدقاء في الداخل والخارج، ومجلسه هذا عامر بالناس، ويمتلئ في يومي الاثنين والخميس عن بكرة أبيه، ولديه في كل يوم اثنين إفطار جماعي للصائمين، ومجلسه يقصده الفقراء والمساكين والمحتاجين، ولا يرد أحدًا يطلب مساعدته. عرفت حبه الشديد للقراءة منذ نعومة أظفاري، فأنا أعتبره من المثقفين.. كان ملاحقًا لأضواء المعرفة والثقافة ومحبًّا لأعلامها وروادها، رغم شيخوخته وعمره الآيل للزوال .. لم يخبرني في يوم من الأيام أنه درس في جامعة معتمدة، أو في معهد علمي .. حدثني كثيرًا عن عزم الإنسان وتصميمه على الرقي بحياته، متحديًا كل الظروف الصعبة والعقبات التي قد تعترض سبيله، مهما كانت طبيعة هذه الظروف

وحدتها، سواءً أكانت ظروفًا مادية أم معنوية، فعليه إيجاد فرص جديدة، تجعل أمله في العيش بحياة أحسن وأكثر راحة وسعادة، وكان يردد دائمًا أن إرادة الإنسان هي العامل الحاسم في صنع حياة كريمة له، ويرى أن المستقبل يصنعه ذوو الإرادات القوية، القادرة على العطاء. منذ أن وعيتُ هذه الدنيا عرفته محاربًا للإحباط الذي يُعاني منه بعض البشر، ويعيش على يقين تام بأن البشر جميعًا يمتلكون في داخلهم طاقات وإمكانات روحية عظيمة، تستطيع أن تسمو بهم إلى آفاق حياة جديدة، يتجاوزون فيها جميع ما يعيشونه من صعوبات في الوقت الحاضر .. كان يقول: إننا نتعلم من أخطائنا، ويمكن أن تكون تجاربنا الفاشلة خير حافز لنا لكي ننجح في المستقبل .. فلا تيأس - يا بني - من أول تجربة فاشلة لك؛ فالفشل أساس النجاح وبدايته، والبشر ينضجون كل يوم من خلال تجاربهم .. نحن نُخطئ فنصحح الخطأ .. هذه هي طبيعة الحياة، وسنة الله في خلقنا، بل هذا ما يريده الله سبحانه وتعالى منا كبشر، كما قال ﷺ: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»، وكما قال الله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:45]. كان والدي في كل صباح يجلس في هذه الغرفة المقابلة لنا، فيها مكتبته التي تحوي الكثير من الكتب المتنوعة الثقافات، وفيها مكتبه الذي يُدير منه أعماله التجارية الكثيرة، يمضي

فيها ساعات طويلة في القراءة، ودخلت عليه قبل عام دون استئذان عندما شاهدت باب الغرفة مفتوحًا، فلم يشعر بي إلا عندما وقفتُ بجانبه، فرأيته مندمجًا في الكتابة على ورق أبيض، مسطر من الحجم الكبير، وكان يكتب في الورقة أو الصفحة (لا أعلم) رقم (155)، وعندما شعر بوجودي قلب الورقة بسرعة على ظهرها الفارغ .. خشي أن أقرأ المكتوب فيها، ثم جمع بقية الأوراق من فوق سطح المكتب، وأودعها في بطن الخزينة الحديدية التي خلفه، ذات المفتاحين، وعندما سألته مازحًا معه عن الذي يكتبه، هل يكتب رسالة عشق وحب وغرام لأحد المعجبات به؟ فرد عليّ بنوع من الجد، وقال: هذه ذكرياتي أكتبها لكم أنتم، لن تُقرأ إلّا بعد وفاتي، وعند انتهائي من كتابتها سوف أعطيها المحامي (صالح شاهين)؛ ليحتفظ فيها لحين وقتها، فقبلت رأسه وقلت له: بعد عمر طويل يا أبي.

عند تلك اللحظة التي توقف فيها (سعيد) عن مواصلة حديثه، التفت (ناصر) للمحامي (صالح) فورًا، وسأله:

- أين أوراق هذه المذكرات يا عم صالح؟

فاستغرب (صالح) من كلام (سعيد)، ورد على (ناصر):

- لأول مرة أسمع عن هذه المذكرات، ولم أستلم من والدكم أية أوراق فيها ذكريات أو مذكرات .. كل ما في حوزتي منه عبارة عن

صكوك للعمائر وللأراضي الكثيرة، وأوراق السجلات التجارية للمصانع والشركات ودفاتر الشيكات، وظرف خاص لك أنت يا ناصر، سوف تستلمه.

عندها تدخل (سعيد) في الحوار، وقال:

- على رسلك أخي الكبير (ناصر) .. دعني أكمل الحديث لو سمحت، فقبل وفاة والدنا بشهر، وفي أيام مرضه الأخيرة، الذي تُوفي فيها، رأيته يجمع كل هذه الأوراق من الخزنة، ويضعها في صفيحة تمر فارغة بالحديقة، ويقوم بحرقها، فوقفت بجانبه، أنظر لسرعة احتراق الأوراق، فسألته عن سبب حرق كل هذا الجهد الذي بذله، فقال: إنها لأيام طوى عمرها الزمن، وَقَبَرَ أهلها الصمت والنسيان، والجدير بنا حرقها؛ كي لا يعرف الناس عن المقبورين شيئًا، والميت يجب أن لا يُقال في سيرته غير.. الله يرحمه.

(25)

عاد (ناصر) لمدينة الرياض، بعد أن قضى أسبوعًا كاملًا مُقيمًا بين إخوانه الثلاثة في دُبي، الذين أحب صحبتهم ومرافقتهم، وتعرف على والدتهم الكريمة الطيبة (مهرة)، واستمتع بحديثها عن سيرة والده، وقالت له: لقد ذكرتني بأشباه والدك أيام شبابه رحمه الله.

يُقدم ناصر استقالته للمصرف الذي يعمل فيه، ويُلغي البعثة، وكل من حوله من الموظفين في المصرف مذهولون على ضياع مثل هذه الفرصة السانحة له، ويتهمونه بالغطرسة والجنون والجهل وسوء الفهم، وعدم معرفته لمصلحته الخاصة .. هم لا يعلمون ماذا حصل له .. وماذا استجد في حياته من مفاجآت أعظم مما هم ينظرون له، والإنسان - بصورة عامة - ليس مضطرًّا لتبرير تصرفاته للآخرين، وليس ملزمًا بأن يشرح لهم كل ما يحدث له في هذه الحياة .. هنالك خطوط حمراء بينه وبين الناس، عليهم أن لا يتجاوزوها.

ثمّ ذهب ناصر لمدينته الصغيرة؛ ليُخبر والدته (زكية) عن كل ما حدث له من أمور، وبالتفصيل الدقيق، ويسألها – بالله - أن تخبره عن حقيقة هجرة والده لجزيرة (دلما)؛ لأنه فشل في معرفة سبب غربته حتى عند أبنائه الثلاثة في دُبي، فتُجيبه رغم شدة خوفها من هاجس تأنيب ضمير حلفه عليها:

- يا ناصر، إنّ والدك رَحِمَهُ ٱللَّهُ دفن سره معه داخل كفنه بقبره .. غفر الله له ولنا .. حتى جدتك المسكينة المقطوعة من شجرة لم يرق لها قلبه القاسي، وتُوفيت حسرة عليه بعد هجره لها بسنتين.

يُسافر ناصر مع والدته (زكية) لدُبي؛ لتعيش مع ضرتها (مهرة) داخل القصر الكبير، بعيدًا عن مجتمعها، ويتفرغ لإدارة أعمال والده التجارية الكثيرة مع إخوانه الثلاثة، بعد أن سلمه المكتب القانوني ظرفًا فيه أوراق جنسيتهما الإماراتية؛ ليعيش بقية حياته بعشق بلدين .. يحتار بينهما .. فأيهما الأفضل؟ وأيهما أكثر حُبًّا لقلبه؟

تمت بفضل الله في يوم 2016/04/25م

في يوم إعلان رؤية السعودية 2030

للمراسلة: turathi@hotmail.com